مجلة الدراسات العربية

مجلّة علميّة أدبيّة ثقافيّة سنويّة

العدد: الحادي عشر السنة: الحادية عشرة ديسمبر ٢٠١٤

رئيس التحرير: الدكتور شاد حسين
هيئة التحرير: منظور أحمد خان
بيرزاده بشير أحمد
عبد الرحمن واني
صلاح الدين تاك
طارق أحمد آهنغر

تصدر عن قسم اللغة العربية بجامعة كشمير
سري نغر، كشمير (الهند) ١٩٠٠٠٦

اسم المجلة:
مجلّة الدراسات العربية

ISSN 2231-1912
رئيس التحرير: الدكتور شاد حسين

الناشر: رئيس قسم اللغة العربية جامعة كشمير، سري نغر (الهند)
الكتابة و التصميم:
السيّد شبّير أحمد

جميع الحقوق محفوظة لقسم اللغة العربية، بجامعة كشمير، سري نغر (الهند)

بدل الاشتراك:
في الهند: ٢٠٠ روبية هندية
في الخارج: ٢٠ دولارا

المراسلات:
توجّه المقالات والرسائل والاشتراكات إلى العنوان التالي:
رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سري نغر (الهند) ١٩٠٠٠٦
هاتف:
0194-2420078, 2420405, **Ext. 2331**
البريد الكتروني:
hodarabic@kashmiruniversity.ac.in

من أهداف المجلّة:

- **إتاحة الفرصة للباحثين و مدرسّي اللغة العربية عن آرائهم و أفكارهم.**
- **اطّلاع الدارسين و الباحثين على الثقافة العربية و المستجدّات في العالم العربي.**
- **اكتشاف إمكانيات الاتصال و التفاعل بين معاهد اللغة العربية و مراكزها في الهند و خارجها.**
- **تزويد مدرّسي اللغة العربية بالمعلومات الجديدة عن المناهج التعليمية و التدريبية.**
- **نشر العلوم و الفنون العربية و تعميم اللغة في الهند.**

جميع المقالات والبحوث المنشورة في هذا العدد تعبّر عن آراء كتّابها ولا تعكس بالضرورة عن رأي المجلّة.

المحتويات

- كلمة العدد 3
١. الفنّ في روايات جرجي زيدان
أ. د. منظور أحمد خان 7
٢. الهند كما وصفها ابن بطوطة
الدكتور محمد إرشاد الحق
25
٣. الأبعاد الفنية في ثلاثية نجيب محفوظ
د. صلاح الدين تاك 31
٤. نشأة العصبة الأندلسية ودورها
في تطوير الأدب العربي
د. عبد الرحمن واني
44
٥. "الشحاذ": إنعكاس الأزمات النفسية
د. صلاح الدين تاك 57
٦. هجرة اللبنانيين إلى أمريكتين
د. عبد الرحمن واني
68
٧. مواقف أدبية في كتب البيروني
د. شاد حسين 79
٨. السيّد جمال الدين الأفغاني، داعية التضامن
الاسلامي و النهضة العربية
طارق أحمد آهنغر
95
٩. نشأة الكتابة وتطوّرها في اللغة العربية
غلام مصطفى مير
111
١٠. مشاكل تدريس اللغة العربية في كشمير وحولها
بير زاده بشير أحمد 125

١١. الشعرالعربي في كشمير و سماته البارزة
د. شاد حسين 143
١٢. المدح عند حسان بن ثابت و تأثيره في شعر شمس الدين غمغين و المفتي قوام الدين
د. سيد عبد المجيد أندرابي
162
١٣. أدب النضال في الشعر السعودي الحدي
د. عبد الوحيد شيخ 169
١٤. الموازنة بين السيرة الذاتية والسيرة الغيريّة
طارق أحمد خان
181
١٥. أنيس منصور في مسيرة أدب الرحلة (دراسة تحليلية)
عرفاني رحيم 190
١٦. مساهمة محمد إدريس الكاندهلوي في المديح النبوي
د. بلال أحمد زرغر
207

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة العدد

نحمده ونصلي على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. تشعر هيئة التحرير بالبهجة والسرور على تقديم العدد الحادي عشر لمجلّة الدراسات العربية إلى سماحة القراء. ونشكر الله على هذا التوفيق في إصدار المجلة متسلسلة. وقد نالت المجلّة اقبالاً بالغاً في الأوساط العلمية والأدبية والأكاديمية داخل البلاد وخارجها بكونها محتوية على الدراسات والبحوث القيّمة في مجالات شتّى من قبل أساتيذ الجامعة الخبراء والباحثين النابهين.

وهذا العدد من المجلّة الّذي بين أيديكم يحتوي على دراسات مختلفة تناقش الاتجاهات الأدبية الحديثة والقضايا المعاصرة حول القصة العربية ومن هذه الدراسات الفن في روايات جرجي زيدان، والأبعاد الفنية في ثلاثية نجيب محفوظ و "الشحاذ" انعكاس الأزمات النفسية، وروايات نجيب محفوظ الإجتماعية والقصة القصيرة وصورها المختلفة عبر العصور.

وتناول المجلّة المقالات المهمة في الشعر العربي التي تكشف نواحي الشعر النادرة، ومنها الشعر العربي في كشمير وسماتها البارزة وأدب النضال " الشعرالعربي في كشمير و سماته البارزة"، " أدب النضال في الشعر السعودي الحديث" و " المدح عند حسان بن ثابت و تأثيره في شعر شمس الدين غمغين و المفتي قوام الدين" و " مساهمة محمد إدريس الكاندهلوي في المديح النبوي" في الشعر السعودي.

وكذلك يشاهد القارئ المقالات حول اللغة العربية ومنها " مشاكل تدريس اللغة العربية في كشمير وحولها" و "نشأة الكتابة وتطوّرها في اللغة العربية".

وجدير بالذكر أن هذا العدد يرّكز اهتمامه على إبراز جهات مختلفة من الأدب المهجري والهندي. وهناك مقالات

حـول الموضـوعات أدبيـة متفرقـة نرجـوا أنهـا سـتفيد بـالقراء والبـاحثين الناشـئين الـذين ينشـغلون فـي البـرامج البحثيـة فـي جامعات مختلفة.

وأخيـرا أرى مـن واجبـي أن أقـدم الشـكر الجزيـل الخـالص لكـلّ مـن أسـهم فـي إصـدار هـذه المجلـة رجـاءً أن تتواصل مثل هذه المساهمات الأدبية من انحاء البلاد خارجها.

وترحّـب هيئـة التحريـر باقتراحـات القـارئيين وآراءهـم القيمـة الغاليـة فـي تحسـين مسـتوى المجلّـة وتنميتهـا. ونـدعو الله سـبحانه وتعـالى أن يغفـر لنـا عفواتنـا ويكلـل جهودنـا بالنجـاح والتوفيق.

رئيس التحرير

الفنّ في روايات جرجي زيدان

بقلم: أ. د. منظور أحمد خان

قبل أن نتحدّث عن الموضوع جدير بنا أن نشير إلى رؤية جرجي زيدان للرواية التاريخية، ثمّ الغرض الذي عكف من أجله على تأليف سلسلة من الروايات عن تاريخ الإسلام. و نراه يوضّح موقفه في مقدمة الرواية "الحجاج بن يوسف"، حيث يقول إنه يهدف إلى ترغيب الناس في مطالعة التاريخ عن طريق الرواية التي هي أفضل وأجذب وسيلة للفت انتباههم إلى هذا الفرع الجافّ من المعرفة. ولذا أنه يُخضع فنّ الرواية للتاريخ، بحيث يسمح للحوادث التاريخية أن تبقى على حالها دون نقص أو زيادة، إلا ما تقتضي الحوادث نفسها الشرح والإيضاح كوصف عادات الناس و أخلاقهم. و يبادر إلى الذهن أنّ هدف المؤلِّف من تأليف الروايات يوافق هدفه من تأسيس مجلته "الهلال" التي كان ينشر فيها هذه الروايات على نحو دوري، وهو "تعميم العلم بين الناس على اختلاف مداركهم و تفاوت معارفهم"[١].

والحق أننا لا نجد ولوع زيدان بنشر التاريخ و تعميمه في رواياته فحسب، وإنما نجده في مؤلفاته غير القصصية من التاريخية والعلمية و الاجتماعية أيضا. ويحدِّثنا عبد المحسن طه بدر أن الباعث لرغبته في التاريخ يرجع إلى ظروف العصر الذي عاشه، ثم إلى ميله الطبعي الشديد في التاريخ و ما يتعلق به مباشرة أو غير مباشرة. ثم أنه تأثّر بتيار التاريخ العربي الحاسم الذي كان نشيطا منذ السبعينات للقرن التاسع عشر، والذي كان يقصد إلى نشر التراث الغربي من جهة، وإلى تعريف العرب سرّ تفوّق الأمم الغربية على غيرها من جهة أخرى[٢]. وقد صدق الباحث أحمد علي جويلي أنّ زيدان نجح في مرماه تحريض العامّة ولا سيما الشباب على مطالعة التاريخ و استمالتهم نحوه[٣]، ولكنه لم ينجح في خلق انطباعات قويّة في أذهان قرائه، كما لم يفُز بتثبيت قدميه في صفّ روّاد الرواية العربية نظرا لضخامة عدد رواياته الذي يبلغ ستة عشر.

وبدلا من أن نذهب مذهب عبد القادر المازني و أمثاله الذين يُنكرون على زيدان أية موهبة فنية و يصفونه "رجلا من الأوساط لم يرفعه الذكاء و قوة الذهن و سعة الروح إلى مرتبة العظماء و الفحول، و لم يهبط به الغباء والبلادة إلى درجة العوام والغوغاء[٤]. ونرى من الواجب أنْ نقف موقف الباحث المجدّ في كلِّ عنصر من عناصر رواياته، و نبيّن

حظّ رواياته من الجودة الفنية أو نقصها. على هذا النحو نقسّم بحثنا إلى خمسة فصول و هي: ١- البناء الفني و٢- الحكاية و ٣- الحبكة و٤- الشخصية و ٥- التاريخية. فأولا نتناول **البناء الفني**:

وأوّل ما ينال أهميّة كبرى في بناء الرواية هو تآلف المؤلِّف وانسجامه مع موضوع الرواية و مناخها العام فكرةً وعاطفةً. و بما أنّ المؤلِّف لا يربطه رابط بالحضارة الإسلامية الفخمة جنسا و دينا[٥]. فإنه لا يستطيع أنْ ينظر في التاريخ الإسلامي من عين الباحث السليل المنوّه بأعمال أجداده، كما لا يستطيع أنْ يتعاطف مع أبطاله الكرام العظام، ولا يحزن بضياع مجد المسلمين عامّة و العرب على نحو خاصّ. وعلى العكس يؤوّل فتوحاتهم في مشارق الأرض و مغاربها تأويل أساتذته المستشرقين من انقسام طبقة الحكام للأمم المفتوحة فيما بينها، وتقهقر هذه الأمم و تضعضعها و فسادها ....الخ.

وقد وجدناه في روايته "فتح الأندلس" على عكس من رواياته ذات بيئة إسلامية، متآلفا مع موضوع الرواية وشخصياتها، بحيث يشارك الشخصيات في شعورها بالفرح والابتهاج، ثم بالحزن و اليأس أتمّ المشاركة. كذلك يتحمّس في وصف البيئة النصرانية بإسبانيا قبل الفتح الإسلامي من أديارها و قسسها و رهبنتها[٦]. كذلك يكبّ على تصوير مناقب شخصياته الدينية فوق مناقبها الخلقية. وله المثل الأعلى في شخصية أوباس المطران الذي يُعرف بسداد الرأي و التعقّل، والذي يمثّل دورا هامّا في الرواية دون سائر الشخصيات الأخر حتى البطل نفسه. فهو الذي يُرشده إلى سواء السبيل بوضع المشروع لإخراج المملكة من أيدي الملك المختلس، ثمّ هو الذي يُصلح بين الملك و بين قائد جنده و قسيسه الخاصّ لئلاّ تنقلب المملكة إلى الفوضى و العدوّ على بابها. و نتيجةً لعدم ائتلافه الأبطال المسلمين فهم لا يبدون للقارئ إلا الأشباح الضئيلة التي لا هوية لهم ألبتّة. فهذا طارق بن زياد مثلا، لا نجد في تقديمه أية حماسة ولا نشاط، كما لا نجد خلفية وافية مُقنعة في نقل خطبته الشهيرة التي ألقاها على جيشه قبيل نشوب القتال. و كأنّ هذه الخطبة في غير محلِّها كرقعة حمراء في ثوب أسود[٧].

وممّا يساهم في عدم تآلفه مع مناخ رواياته العامّ أيضا شمولها الجانبين التاريخي و القصصي على نحو افتعالي بحيث لا يستطيع أن يدمج الحوادث القصصية في الأخرى التاريخية إدماجا فنيا بارعا. و نرى أنّ أبطاله القصصيين لا يستطيعون القيام بأية مهمّة تبرّر وجودهم في أحداث الرواية بطريقة مُقنعة، بل أنّهم يبدون مجرّد المتفرّجين و المنتظرين بما يأتي لهم القدر بعد نهاية صراع سياسي أو معركة في ساحة الوغي. و من أكثر بواعث التفكك في روايات زيدان عنايته بالأحداث التاريخية دون الشخصيات التي لا يتعدّى ذكرها الوقائع التاريخية المعروفة. و مع أنّه قد

سمّى معظم رواياته بأسماء الشخصيات التاريخية الفذّة كَ"الحجاج بن يوسف الثقفي" و "أبي مسلم الخراساني" و "عبد الرحمن الناصر" و "صلاح الدين الأيوبي" و لكنه لا يهمّه من هذه الشخصيات إلا بعض الأحداث التي اشتهرت بها، أو التي تدلّ على الأحوال السياسية للعصر الذي عاشتها. فروايته "الحجاج" أصلا عبارة عن مهمّة حسن الذي يغادر دمشق إلى مكّة، و يعاني في طريقه صعوبات كثيرة حتى يصل مكّة وهي محصورة من القوّات الأموية التي يرأسها الحجّاج. ويحتال حسن هذا في دخولها فيشاهد ما يقع بين الحجّاج و عبد الله بن الزبير المعارك حتى ينتهي أمر عبد الله و يفوز هو بإبلاغ الرسالة التي جاء بها من دمشق، كما يفوز بالحصول على حبيبته. هكذا من الواضح أنّ الرواية تتعلّق بمغامرة البطل حسن لا بالحجّاج على نحو مباشر. و مع ذلك فإنّ المؤلِّف لا يندفع في جمع الغثّ و الثمين كما فعل في روايته "عبد الرحمن الناصر" حيث بالغ في وصف بذخ الناصر و ترفه من القصور الفخمة و تكاثر الخدم الخصيان مبالغة ظاهرة، والتي حالت بين تطور الشخصيات التاريخية وبروزها على منصّة الأحداث ولا سيما الناصر نفسه. و كذلك نشعر بوجود هذه الظاهرة شعورا قويّا في روايته الأخرى "العبّاسة أخت الرشيد" حيث يُسرف في وصف مجالس الشراب للأمين و أبهة خلافة هارون الرشيد. على أنه يوجد بعض الانسجام في مناخ الرواية "الحجّاج بن يوسف" التي تمثِّل فيها الشخصية القصصية دورا مركزيا وعاملا فعّالا في مجرى الأحداث. و من نوع هذه الروايات "أبو مسلم الخراساني" التي هي بمثابة القصّة الرومانسية التي تحتلّ فيها الشخصية القصصية مكانا مركزيا و تنتقل من مكان إلى مكان، و تتنكّر حسب متطلبات الظروف و تتناول عدّة أعمال تقوم بها بحذق و مهارة بالغتين.

و نرى هذا المغامر في شخصية الضحّاك الذي هو لغز بالنسبة للذين يعاملونه ليل نهار. و له معرفة دقيقة لأهمّ الأحداث السياسية التي حدثت أو التي سوف تحدث في البلاد الإسلامية، وهو أهل ليؤدِّي أية مهمّة بدقّة و مهارة مهما شاقّ على الآخرين تنفيذها متظاهرا البلاهة و الهذيان مرّة، و الزهد و التكشّف مرّة أخرى. فهو الذي يتوسّل إلى أبي مسلم نيابةً عن البطلة أن يغمرها بلفتة أو نظرة واحدة، وفي نفس الوقت يُغري أبا مسلم على اللحاق بابن الكرماني ليهاجم نصر بن سيّار، بحيثُ يقضي بعضهم على بعض، كي تمكّن هو و حزبه من السيطرة على منطقة خراسان. و للحصول على أغراضه السياسية يفرّ مع البطلة هربا من فتك أبي مسلم، و يسعى وراء إلقاء الشقاق بين أبي مسلم و بين كبير نقباء الدعوة العباسية من ناحية، و قطع شجرة العباسيين من جذورها من ناحية أخرى. ومع أنه لا يُكتب له النجاح في مرماه الأول، ينال بغيته في الثاني بإلقاء القبض على إمام العباسيين إبراهيم و قتله على يد مروان بن محمّد.

ثم يتواصل جهوده حتى يتمكّن من قتل أبي مسلم بإغراء المنصور العباسي ضدّه، مع أنّـه هو أيضا يلقى حتفه على يد المنصور[٨].

ثم وقد ألحّ النقاد على الروائي في التجنّب من تقسيم الرواية إلى الفصول والأحداث العرضية، كما منعوه من استطراد الأشياء و تكرارها[٩]. وجدير بالملاحظة في هذا المقام تصور زيدان لطبيعة الصنعة الروائية و الظروف التي كان ينشر فيها رواياته في دوريته "الهلال" فصلا أو فصولا في وقت واحد، وهو نفسه على غير بيّنة من الفصول القادمة[١٠]. و طبعا مَنْ كان تصوره للفن الروائي تصورا ناقصا كهذا، فلا ينقسم عمله إلى أحداث عرضية فحسب، وإنّما يحدث فيه الاستطراد البغيض أيضا. و نرى هذا الانقسام في "العباسة أخت الرشيد" على نحو واضح جليّ، فيكاد أن يكون كل فصل من فصولها وصف مستقلّ لمجلس شخصية تاريخية أو أخرى، لو لم يربطها رابط واحد، وهو حقد هذه الشخصيات على جعفر البرمكي وسعيها وراء إغراء هارون الرشيد ضده. كذلك تشمل هذه الرواية عدة مواقف مستطردة لا تساهم في مجرى الأحداث أقلّ مساهمة، ومنها وصف حياة العباسيين المترفة من القصور الفخمة و الرياش الموجود فيها من نادر الصنعة، وازدحام الخدم و العبيد، ثم الجوارى و السريات من مآت الجنسيات، و أسباب الراحة الأخرى كَكيان الحدائق الغناء حول القصور المتكونة من البرك والبط و السمك ...الخ. ومنها أيضا المحادثة التي جرت بين إسماعيل و جعفر بن الهادي بشأن البرامكة و مساهمتهم في تنظيم أمور الدولة و تحسينها، ثم إيثارهم الضياع و الأموال و منافستهم الخليفة في إغداق العطايا على الرعية. و منها أيضا وصفه موكب هارون الرشيد نحو الملعب حيث لا يحدث شيئ يُذكر[١١].

و أما البيئة في روايات زيدان فبما أنّ أحداث معظم هذه الروايات مقتصرة على قصور الملوك و الأمراء، فإنّنا لا نستطيع أن نرى مجتمع القرون الوسطى رؤية كاملة، بل نرى بعض ظواهره التي يمكن استنتاجها من محيط القصور. ومن هذه الظواهر ظاهرة الرقّ حيث نعلم أنّ الإنسان رجالا ونساء وصبيانا كان يُعرض في سوق النخّاسين و يُقدَّم كتقديمنا إكليلا من الزهور بعضنا بعضا. كذلك نتعرّف بنوع حياة الطبقة الحاكمة و ترفها و بذخها، ثم تبذيرها في مآكلها ومشاربها اليومية. ثمّ في شراء الجوارى المشتغلات بالمهن المعروفة من الرقص و الغناء بآلاف دنانير على وجه خاصّ[١٢]. ونجد لبعض القصور نوافذ تُطلُّ على المجتمع على نحو واسع بحيثُ نتمكّن من رؤيته الشاملة إلى حدمّا. و نجد هذه الظاهرة في "فتح الأندلس" التي تصوّر لنا المجتمع بميزاته الخاصّة لذلك العصر من تديّن الناس الشديد و هيئتهم الخارجية الخاصّة بهم، وانقسامهم إلى الطبقات المختلفة من الحاكمة و الدينية و الكادحة، ونفوذ طبقة أهل الدين

في جميع هذه الطبقات نفوذا مطلقا، ثم ما يحدث أحيانا من الفساد بين هذه الطبقة الممتازة، وما يؤدِّي هذا الفساد المجتمع كله إلى الخيبة و الاندحار[١٣].

وفي "الحجاج بن يوسف" يتطلّع زيدان إلى تصوير المجتمع العربي الإسلامي من حياته الريفية والمدنية من عفّة الريفيين وعشقهم، ثمّ أساليب حياتهم الساذجة البسيطة المتدفّقة بمشاعر الإيثار والتضحية، ومن ترفيه المدنيين ومجالسهم للشعر والأدب، ثمّ من سياسة الأحزاب و القبائل، ولكنه لا ينجح في مزج عادات ذاك المجتمع و أخلاقه بسلوك شخصيات الرواية مزجا فنّيا، لتصبح روايته صورة طبعية غير متكلفة لذاك المجتمع. فإنه مثلا حين ذكره عزّة الميلاء المغنّية الشهيرة بالمدينة آنذاك لم يُرنا بالضبط علاقتها بالمجتمع و تأثيرها في مسيره نحو الأحسن أو الأسوأ. كذلك لم يستطع أن يصوِّر مجالس سكينة بنت الحسين الشعرية و النقدية حقّ التصوير، و بواعث انعقادها والغاية منها، ثم تأثيرها في المجتمع سلبا أو إيجابا، كما لم يقم بتوضيح الحبّ بين ليلى و توبة، ثم بين جميل و بثينة كي يُلقي الضوء على عادات العرب البدو و أساليب معيشتهم التي كانوا يمتازون بها دون سائر الأمم الأخرى[١٤].

وهذا هو نفس المنهج الذي يتناوله زيدان في سائر رواياته عند تصوير البيئة لمجتمع مّا. وبدلا من أن يستغلّ تفاصيلها بجعل الشخصيات يتحدّثن عنها أنفسهنّ، يندفع في حشد هذه التفاصيل على لسانه مرّة و على لسان الشخصيات مرّة أخرى. و كلّما يتوجّه إلى محيط الشخصية لا يسمح له أن يتبيّن للقارئ شيئا فشيئا كجزء أساسي لأحداث الرواية، بل يأخذ يصف ذاك المحيط وصفا يؤدِّي القارئ إلى الشعور بأنّه يقرأ نبذة شبيهة بعلم الآثار. وهذا هو الحال حتى إذا يكلِّف شخصية من الشخصيات على بيان هذا المحيط[١٥]. ونرى تفاهته هذه في أوجها في "العباسة" حيثُ يبذل غاية جهده في ذكر الأحداث التي تدلّ على أساليب العباسيّين في الحياة. والحق أنّ هذه الأحداث قلّما توجد بينها و بين أحداث الحكاية علاقة مّا، بحيثُ لا يشعر القارئ بالضجر و الكآبة فحسب، وإنما يضحك على بلاهته و ابتذاله أيضا. فإنه مثلا يأخذ القارئ إلى قصر زبيدة مرّة، وهي في انتظار ابنها الوحيد محمد الأمين. وقبل أن يُخبره عن مقابلة الأم لابنها وما يجري بينهما من المحادثة، يتناول صفحات بأتمّها في ذكر مآثر زبيدة الدينية، ووصف قصرها وما يشمل هذا القصر من الغرف، ثمّ ما يوجد فيه من الأثاث و الرياش و الستائر المطرّزة من الصور المذهّبة و غير المذهّبة إلى آخر هذيانه[١٦].

وقبل أن نأتي إلى صدق تصوير زيدان المجتمع العربي الإسلامي أو تشويهه، نرى من اللازم أن نقف وقفة قصيرة عند الحقيقة المكانية التي علّق الفنانون أهمية كبرى على دقّتها و صحّتها[١٧]. وإجمالا نرى أنّ

رواياته التي تقع معظم أحداثها داخل القصور قلما يشعر القارئ بقراءتها شعورا قويّا نحو هذه الحقيقة الأبدية. ففي "عبد الرحمن الناصر" مثلا لو لم يكرّر المؤلِّف أسماء الشخصيات البارزة تكرارا، فينتبه القارئ إلى أمور تذكِّره بارتباط هذه الشخصيات بمكان خاصّ، يكاد أن يخيّل إليه أنّ أحداث الرواية تجري في "اللامكان". و الروايات التي تقع أحداثها في الفلوات و الوديان يتمكّن المؤلِّف من جعل القارئ يشعر بأنّ الحوادث نتاج مكان خاصّ ذي موقع و فصول و سمات خاصّة به. وأحسن ما قام به المؤلِّف تصويره خلفية إسبانيا في روايته :فتح الأندلس" التي يكثر فيها ذكر الجبال والتلال، ثمّ الأودية و المرتفعات، ثمّ الحدائق والمغارس، ثمّ الأنهار والجداول، ثمّ الأزهار والرياحين، ثمّ الأمطار والثلوج، مما يجعلنا منتبهين لجمال طبيعة البلاد المذكورة وروعتها من بداية الرواية إلى نهايتها.

وفي عدّة من المواقف وقد أحسن المؤلِّف التوافق بين الطبيعة وبين مزاج الأبطال وشعورهم نحو المشاكل التي يواجهونها. فهذه البطلة ويُرينا إيّاها، وهي تمشي في الحديقة منقبضة النفس تشاركها الطبيعة في انقباضها. ثمّ يُرينا بأعينها هي حدائق بعيدة بكنفها "جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الأشعّة كأنها جبال من الفضّة". و أحيانا يمزج وصف المناظر الطبيعة بمجرى أحداث الرواية امتزاجا يزيدها روعة و اجتذابا. فمثلا إذا يُشيد الحبيب حبيبته بثباتها في الحبّ و إخلاصها له الودّ كلّ الإخلاص، فلا تُجيب هذه عن شيئ، وإنّما تلتفت بردائها و تحوّل نظرها إلى مجرى النهر أو تُصغي إلى صوت هديره، فيستولي على الحديقة سكونٌ لم يتخلّله إلاّ خرير الماء و زقزقة العصافير[١٨].

وقد لاحظ النقاد على جرجي زيدان ولاموه لتقصيره في تصوير المجتمع الإسلامي حقّ التصوير و لبالغ عنايته بالمسيحيّة من أديرتها و رهبنتها دون أي محلّ لها في سياق الحوادث، ثمّ لتشويهه مفاهيم المجتمع الإسلامي الأساسية في جميع العصور التي تتناولها روايته[١٩]. ففي "أبي مسلم الخراساني" مثلا نراه يغضّ عن ذكر مكارم أخلاق المسلمين في كلتا البلاد العربية و العجمية، بل أنه على العكس يُظهر تحمّسا ونشاطا في ذكر انحرافاتهم من التمسّك بالفرائض الدينية، ويُلحق بهم الإهمال حتى في الصلوات الخمس اليومية، الشيئ الذي لا يتصوره المرء وقوعه في القرون الأولى للتقويم الإسلامي[٢٠]. كذلك يحطّ من شأن رجال الدين و يستصغرهم بل يسخر منهم بعض الأحيان، كما فعل بالفقيه ابن عبد البرّ أحد فقهاء الأندلس الكبار بقرطبة في زمن عبد الرحمن الناصر[٢١]. و أكبر منه أنّه ينسب لخير الصحابة و أبنائهم أشياء لا تليق بمقامهم ولا تسمح الظروف آنذاك لحدوثها بتمسّك المسلمين بدينهم الحنيف استمساكا. ففي "عذراء قريش" مثلا أنّه يختلق شخصية فتاة تُعجب كلّ من محمد بن أبي بكر والحسن بن علي حتى يتنافسان في الحصول على يدها من سيّدنا علي

بن أبي طالب. ولم يكتف زيدان بالإساءة إلى هذين الشابّين وإنّما أدّاه هذيانه إلى الحمل على الإمام نفسه بوصفه أنّه يفتن بالفتاة عندما تدخل عليه بزيّ رجل[٢٢].

وقد اعتمد زيدان على السرد و المشهد في تقديم المواد القصصية، ولكن اعتماده على السرد أكثر منه على المشهد. و نرى أنّ سرده إمّا يكون على لسانه هو بضمير الغائب، وإمّا على لسان إحدى الشخصيات بضمير المتكلِّم. ولكنّ اختلاف الضمائر لا يُحدث كبير فرق في نبرة الرواية البيانيّة[٢٣]. وفي رأينا ترجع نزعة المؤلِّف السردية إلى ميله في تعليم القارئ التاريخ الثابت الذي يؤثِّر في فنّيّة أعماله تأثيرا سلبيّا، من عدم سماح الشخصية بالبروز على سطح الحوادث، ثمّ من عدم إقناع القارئ و إضجاره. ففي "أبي مسلم الخراساني" مثلا نجد أبا مسلم يرأس جلسةً خاصّةً لنقباء الدعوة العباسيّة. و يوجّههم إلى الأقطار المختلفة لنشر الدعوة. وكلّ هذا على لسانه هو حيثُ لا نتمكّن من تكوين أي فكرة عن عبقريته[٢٤]. وفي "العبّاسة" نجده يصوِّر لنا دواخل شخصية هارون الرشيد عن طريق السرد، حيث لا نستطيع أن نرى شيئا من تكتّمه مع شدّة وطأته وسرعة غضبه وهو يُجالس جعفر البرمكي، إلا قوله "كان قلبه يخفق غيظا عليه". وإنّه على العكس يلفّ موقف الرشيد نحو جعفر في المجلس المذكور بجملة "و كانا يتداجيان"، ثمّ يذكر تناول طعامهما معا و مناولة الرشيد له بيده[٢٥].

وأمّا المشهد فإنّه هو أيضا متأثّر بنزعة المؤلِّف التعليمية بحيثُ لا يحمل الحوار القارئ على رؤية داخلية للشخصيات من تفكيرها و تأمّلاتها، ثمّ همومها وغمومها، ثمّ أفراحها و أتراحها، وإنّما يزيد في معرفته نحو الأحداث التاريخية أو على الأكثر يساهم في مجرى الأحداث القصصية. وكذلك يخفق الحوار في تصوير اللحظات الحادّة وما يشعر فيها المرء به حتى يُقدم على أمر جسيم كإقدام المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني[٢٦]. وأحيانا لا يشتمل الحوار على المعلومات الجديدة، وإنّما هو استطراد للأحداث التي سبق ذكرها من قبلُ. و تتشكّل هذه الاستطرادات بشكل خطبة تمتدّ على عدّة من الصفحات، و أحيانا تخرج من طور الواقع بحيثُ تصبح المحادثة العادية بين الرجلين اجتماعا رسميّا لنخبة من قوّاد الجند، حيثُ يضع الرئيس أمام زملائه مشروع العمل بصراحة و دقّة لكي لا يشتبه عليهم الأمر، و يبذلوا جهد طاقتهم في تنفيذ مشروعه الذي أخذه شهورا بأكملها في تدبيره[٢٧].

ومع ذلك ليس هذا موقف زيدان في جميع رواياته كما يدّعي النقاد[٢٨]، بل الحق يقال أنّنا نصادف عدّة مواقف يُحسن فيها المؤلِّف الحوار تحسينا. ففي "العبّاسة" مثلا نجد المؤلِّف يتناول المشهد ليصف لنا مشاهدات أبي العتاهية من الجدار، فيستخدم الحوار الذي يجري بين بطلة

الرواية العبّاسة وخادمتها حيث تتكشّف لنا الأحداث شيئا فشيئا على نحو تمثيلي عال. ثمّ نراه يستخدم الحوار و يُجيد فيه مرّة أخرى حين تواجه أخاها المستبدّ وهي على بيّنة من سبب مجيئه إليها في منتصف الليل، فترتبك شيئا في أول الأمر، ثمّ تجمع رشدها و تواجهه رابطة الجأش، وتردّ عليه ردّ المحامي. و لكنّه إذا يهدِّدها بإيذاء حبيبها وولديها، فتنسى موقفها و تقع على قدميه مستطلفة مسترحمة. وبعد ألا يُصغي الرشيد إلى استعطافها أقلّ إصغاء ويُصرّ على إرادته، تندفع في الإغارة على حشمته وعزّته الكاذبتين. و جدير بالملاحظة هنا أنّ موقفها هذا يدلّ على معرفة المؤلِّف بنفسيّة الإنسان المتغيِّرة حسب التغير في الظروف المحيطة به[٢٩].

و كذلك نجد المشهد في "عبد الرحمن الناصر" يشمل تعريف الشخصيات و ذكر مناقبها ومحاسنها، ثمّ مناجاة البطل التي نتمكّن بها من أنْ نعرف أمورا كثيرة عن البطل وعن الشخصية الأنثى المجهولة الاسم. ثمّ يكشف المشهد عن خفايا نفوس الشخصيات كالفقيه ابن عبد البرّ وسعيد وعبد الله الأمير، كما يساعد في مجرى الأحداث و تطوير الحبكة أحسن مساعدة نظرا إلى أنّ الصراع يبدأ ينجلي خلال الحوار الذي يقوم به هذه الشخصيات الثلاث. ونرى الفقيه في بداية الأمر خجلان من الفشل الذي قد لاقاه في مجلس الخليفة أمام الوفد الرومي، والذي حرّمه ترقية منصبه كقاضي القضاة للأندلس. ومع أنّه لا يجد باعثا خارجيّا لهذا الفشل ينسبه إلى ولي العهد الذي كان من مؤيِّدي منافسه الفقيه المنذر بن سعيد، فيعتزم على الانتقام من ولي العهد بإلقاء العداوة بينه وبين أخيه عبد الله الساذج، وإغرائه على الخروج ضدّ أخيه وأبيه. ونعرف من خلال حديث الفقيه أنّه هو أيضا ساذج الطبع بسيطه حتى يستغلّه سعيد كما يستغلاّن عبد الله معا، دون أنْ يعرف الفقيه كنه الأمر. و كان من همّ الفقيه أنْ تنتقل الخلافة من يد الناصر إلى مريده عبد الله، أو على الأقلّ يحصل عبد الله على ولاية العهد فينال هو منصب قاضي القضاة. وأما سعيد فكان يهدف إلى شيئ أقصى منه، وهو الخلافة و نقلها إلى الشيعة العبيدية المقيمون بالمغرب[٣٠].

و كذلك هناك مواقف خاصّة يُبدع المؤلِّف في التعبير عنها بالجمل اللاذعة على لسان الشخصيات، ومنها موقف حيثُ تسخر شخصية عن شخصية أخرى. فهذا قائد الجند يوجّه قوله إلى الملك المخلوع من أحد القسس ".... ولكنّني أظنّ قائد الجند أولى بالاطلاع على ذاك من سواه لأنّ عليه حماية المملكة، و أمّا السادة الأساقفة فما عليهم إلاّ الصوم و الصلاة!". ومن قوله أيضا " إنّ الملك لم يترك لنا سبيلا نأتيه منه، وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلِّم عنه، والكلّ يعلمون أنّ هذا وأمثاله لا يصلحون لغير العبادة، وقد جعلهم الملك شركائه في مهام المملكة، ولو أخلصوا له النصيحة ما بلغت بنا الحال إلى هذا الحدّ". ومن تلك المواقف

أيضا موقفٌ حيثُ تجادل الشخصياتُ فيما بينها، فهذا الملك وقسيسه وهما يتلامان على إسائة بعضهما بعضا. الملك:

"أنت تعلم أنّ كوميس أعظم قوّادنا، ولم نكن في وقت من الأوقات أشدّ حاجة إليه مما نحن الآن، والعدو ببابنا و ولاتنا يدلّونه على عوراتنا. سامحك الله على هذا الخطأ، ألا يكفي ارتكابنا الخطأ الأول بإخفاء تلك الأخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ آخر شرّا منه"؟.

فيستاء القسيس من هذا التعريض و يقول "كـأنّك تقول لي إنّي أنا سبب ذلك الخطأ ! فإذا كنتُ أشرت عليك مشورة فاسدة كان الأولى ألا تقبلها". فيشقّ ذلك على الملك ويعدّها إهانة أخرى ويقول " أتكون مُخطئا و تضيع منّا أحسن قوّادنا، ثمّ تنقم علينا وتستخفّ بأقوالنا و يكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟!". فيجيبه القسيس وهو يهزّ رأسه و يمشي ولا يلتفت إليه و قوله "صدقت أيها الملك إنّ الذنب ذنبي، والخطأ كلّه خطئي. وكلّ هذه الشرور من نتائج أعمالي، لأنّي لو لم أسيئ إلى بنت صاحب سبتة، لم يكن والدها عونا للعرب على فتح بلادي"[٣١].

ويلاحظ على المؤلِف أنّه لا رواية له لا يجمع فيها بين السرد و المشهد في عديدة من المواضع، بحيث تتكرّر الأحداث تكرارا، ويضاعف في إزعاج القارئ و صرف انتباهه من حوادث الرواية. ففي "العبّاسة" مثلا نراه يذكر عن طريق السرد أنّ العبّاسة اتّخذت العصابة وقاية من عيب فضل سعة في جبينها، ثمّ تتواصل الأحداث حتى كأنّه ينسى ما مرّ من ذكر العصابة، فيكرّر على لسان فضل بن الربيع وهو يتحدّث مع النخّاس. ومن المؤسف غلبة النسيان على المؤلِف مرّة أخرى، بحيث يذكر نفس الشيئ ثالث مرّة عن طريق السرد. و من تكراره أيضا أمر وصيّة المهدي بالخلافة بعده، وما حدث فعلا بعد وفاته، ثمّ قصّة القبض على أبي العتاهية من رجال العبّاسة و نجاته على يد الفضل بن الربيع، ثمّ مؤامرة جعفر بن الهادي لنيل الخلافة[٣٢]. وفوق تكرار الأحداث نرى المؤلِف يلجأ إلى وصف شخصياته وصفا نوعيا، ثمّ يبيّن في مشهد أنها تقضي حياتها مطابقا للوصف. فهذا أوباس المطران مثلا، ويعبّر عنه المؤلِف بأنّه مشهور بسداد الرأي و التعقّل. ثمّ يأخذ يوضّح ميزته هذه عن طريق المشاهد في الصفحات القادمة حتى نهاية الرواية[٣٣].

كذلك يلاحظ على زيدان خطأه في التمسّك بخريطته إذ يحدّثنا أنّ بطل "فتح الأندلس" يستغرق سفره من طليطلة إلى إستجة يومين أو ثلاثة أيام. قل من عاصمة المملكة إلى إحدى ولاياتها داخل حدود شبه قارة إسبانيا، فكيف يستغرق سفر المرء من طليطلة إلى إحدى مستعمرات المملكة بأفريقية و منها إلى الوراء إلى إستجة نفس المدّة. و أكبر منه وقوعه في الخطأ من حيثُ تاريخ أحداث الرواية الذي سيُضحك عليه من أجله، و هو أنّ الرواية تبدأ حوادثها في ديسمبر ٧١١ م، ولكنه يفاجئنا فيما

بعد بتصريحه أنّ فتح الأندلس سيقع في يونيو ٧١٠ م أو ما تليه من الشهور[٣٤].

وأخيرا نأتي إلى مستهلّ الرواية عند زيدان فنوافق محمود حامد شوكت موافقة جزئية على أنّ منهجه وصفي و تركيبي بما نجده ينقل مقالات تاريخية دون أن تحوّلها إلى صور قصصيّة و كامنة وراء القصّة التاريخية[٣٥]. ففي "أبي مسلم الخراساني" مثلا يضع المؤلّف فذلكة تاريخية في بدء القصّة. و تتناول هذه الفذلكة شرح فحوى الرواية ولا سيّما الأحداث التي انقضت قبل التي يريد المؤلّف بثّها في الرواية. و مع أنّ القارئ يستطيع أنْ يكوّن فكرة من الفريقين المضادّين اللذين تدور أحداث الرواية حولها، ثمّ من موضوع الرواية، و لكنّه يُعجز عن تعيين الشخصيات التي ستمثّل هذين الفريقين تعيينا واضحا صريحا. فإننا إذا نفرض أنّ ذينك الفريقين هما العبّاسيّون الممثّلون من أبي مسلم الخراساني والأمويّون الممثّلون من حاكمهم بخراسان، فنكون مخطئين لأنّه لا يحدث بين أبي مسلم و حاكم خراسان مجابهة على نحو مباشر. ثمّ إذا نعتبر أبا مسلم وابن الكرماني و شيبان الخارجي كالفريقين المعارضين، فإنّه كذلك لا يصحّ بما نعلم أنّ أمر ابن الكرماني وشيبان الخارجي ينتهي في منتصف الأحداث. وفي رأينا يرجع هذا الغموض إلى تفكّك حبكة الرواية التي قلّما تتناول خطوطا واضحة ترتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا متينا.

وفيما نخالف محمود حامد شوكت هو أنّ زيدان لا يتناول المنهج الوصفي التركيبي في جميع رواياته، وبين يدينا أربع روايات له لا تفتح بشيئ من قبيل "فذلكة تاريخية" وهي "فتح الأندلس" و "عذراء قريش" و "الأمين والمأمون" وأحمد بن طولون". ثمّ ولو تفتح رواياته بفذلكة تاريخية فإنّ هذه الفذلكات لا تفي بأكثر من أن تكون خلفية للأحداث الواردة في الرواية، فإنّها ليست البدايات كما فهمها حامد شوكت. على هذا النحوإذا نحاول أنْ نرى مستلزمات البداية الفنّيّة في روايات زيدان فإنّها وافرة دون أقلّ ريب. ففي "فتح الأندلس" مثلا توجد إشارات واضحة عن موضوع الرواية أي "سقوط طليطلة" في البداية، بما يقدّم المؤلّف الفريقين المعاندين من الملك رودريك و قسيسه الخاصّ مَرْتِين، ثمّ أوباس المطران و ابن أخيه ألفونس ولي العهد سابقا، و لكلّ منهما يد في سقوط المملكة مباشرة أو غير مباشرة. ومن تلك الإشارات انغماس الملك في الملذّات ولامباليته نحو مهام الأمور، واتّباعه القسيس المنخدع الحقود الغرّ من ناحية، و سعي ألفونس تحريضا من عمّه وراء نيل العرش من ناحية أخرى.

وأمّا نقطة البداية فيسلك المؤلّف طريقة مألوفة مقلَّدة بحيثُ تبدأ الحكاية من حياة البطل الشابّ الذي يبحث عن مجد آبائه الضالّ و يريد الحصول عليه مرّة أخرى. و أمّا إطار للمراجعة فهو بيّن واضح بما يقوم

المؤلِّف بتعريف أبطاله تعريفا واضحا جليّا كما يحدِّد الخلفيّة تحديدا لا يخامره إبهام، كذلك فكرة الرواية المركزية أو موضوعها فهو أيضا واضح جليّ.

ونستدلّ مما تقدّم أنّ زيدان و توجد لديه موهبة فنّيّة لا شكّ إلى إنكارها قطّ، ولكن نزعته التعليمية هي التي تسود على فنّيّة أعماله فتحرِّمها من الإبداع والابتكار. والحقّ أنّ المؤلِّف لو لم يستمسك بالمصادر التاريخية استمساكا لنالت أعماله مكانا رفيعا عاليا في الرواية العربية. وقد رأينا أنّه كلّما يبتعد من هذه المصادر و يستند إلى خياله ويختلق الأحداث والشخصيات، ويتناول المشهد دون السرد، يحدث تآلف بينه وبين مناخ الرواية العامّ وموضوعها، وتتكشّف لنا الأحداث شيئا فشيئا بطريقة تمثيلية جذّابة، كما نتعرّف بدواخل الشخصيات من أفكارها وأحاسيسها. وسنجد ومضات الفنّ كهذه في المقالات القادمة بجنب تفاهات المؤلِّف و تلاعبه بفنّ الرواية المعروف.

المراجع و الهوامش:

١) الهلال سبتمبر ١٨٩٢م، نقلا عن "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" لأحمد إبراهيم الهوّاري، ص ٣٥ و ٣٧.

٢) عبد المحسن طه بدر، تطوّر الرواية العربية الحديثة في مصر، دار المعارف، القاهرة، عام ١٩٦٨م، ص ٩٢.

٣) أحمد علي جويلي، جهود جرجي زيدان في الدراسات الأدبية و اللغوية، رسالة ماجستير قام بتقديمها سمير عبد المجيد في "الهلال" أغسطس ١٩٨٣م.

٤) أحمد إبراهيم الهوّاري، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٩م، ص ١٧١ و ١٧٢.

٥) وقد أثبت مؤلِّف "دراسات في السيرة النبوية" محمد سرور نايف زين العابدين أنّ زيدان لا خبر لعائلته في أنساب العرب، وهي من العائلات اللواتي حضرن مع الحملات الصليبية واستوطنت البلدان العربية ولا سيّما سوريّا. راجع ص ١٨٢ للكتاب المذكور.
دار الأرقم B 552, Moseley Road, Baisal Health, Brimingham, B 12 9 AD, UK, 1988

٦) جرجي زيدان، فتح الأندلس، دار الهدى الوطنية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥.

٧) نفس المصدر، ص ١٣، ٢٥، ١٦٠.

٨) جرجي زيدان، الحجّاج بن يوسف، دار الهدى الوطنية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٠، ٣٧، ٥٩، ١٢٩، ١٦٨ و ١٧٧.

٩) See Miriam Allott, Novelists on the Novel, p. 233

١٠) أحمد إبراهيم الهوّاري، ص ٤٥.
١١) جرجي زيدان، العبّاسة أخت الرشيد، دار الهدى الوطنية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٢، ٦٥، ٧٠و ٨٥.
١٢) المصدر السابق، ص ٢٤، ٢٩و ٨١.
١٣) فتح الأندلس، ص ١٣، ٢٥، ٦٥-٦٩.
١٤) الحجّاج بن يوسف، ص ١٣-١٧، ٣٤-٤١و ٤٦- ٥٦.
١٥) جرجي زيدان، عبد الرحمن الناصر، دار الهدى الوطنية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٧٦.
١٦) العبّاسة أخت الرشيد، ص ٧٩.
١٧) محمد يوسف نجم، فنّ القصّة، ص ١٠٨
١٨) فتح الأندلس، ص ٥، ٦ و ١٠.
١٩) أحمد هيكل، تطوّر الأدب الحديث في مصر، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص ١٩٥.
٢٠) جرجي زيدان، أبو مسلم الخراساني، دار الهدى الوطنية، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٢ و ٣٤.
٢١) عبد الرحمن الناصر، ص ٣٢، ٣٨ و ٤٥.
٢٢) أحمد حسن الطماوي، جرجي زيدان و الرواية التاريخية، مقالة ظهرت في مجلّة "الهلال" سبتمبر ١٩٨٨م.
٢٣) الحجّاج بن يوسف، ص ١١٧.
٢٤) أبو مسلم الخراساني، ص ٥٣.
٢٥) العبّاسة أخت الرشيد، ص ١٠٩.
٢٦) أبو مسلم الخراساني، ص ٧، ٨، ١٣٥- ١٤٦ ، ١٧٢ و ١٧٣.
٢٧) فتح الأندلس، ص ٣٢-٤١.
٢٨) راجع عبد المحسن طه بدر، ص ١٠٥.
+ محمود حامد شوكت، مقوّمات القصّة العربية الحديثة في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٠٠.
+ د. طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، سنة ١٩٧٣م، ص ١٩٣.
٢٩) العبّاسة أخت الرشيد، ص ١٤-١٦، ١٩، ٢٣، ٣٨، ٤٢ و ٤٣.
٣٠) عبد الرحمن الناصر، ص ١١- ١٤، ١٩، ٢٣، ٣٨، ٤٢ و ٤٣.
٣١) فتح الأندلس، ص ١٣٤ و ١٣٥.
٣٢) العبّاسة أخت الرشيد، ص ١٣، ٢٨، ٣٣، ٤٩، ٥١، ٦٨، ٧٢ و ٨٠.
٣٣) فتح الأندلس، ص ٢٧ و ما بعدها.
٣٤) المصدر السابق، ص ٤، ٩٢، ٩٦و ١٠٤.
٣٥) محمود حامد شوكت، ص ١٠٠.

الهند كما وصفها ابن بطوطة

الدكتور محمد إرشاد الحق•

توطئة

لا شكّ أن الهند والعالم العربي يتمتعان بعلاقات وطيدة منذ مطلع التاريخ البشري، والشواهد التاريخية تثبت هذه العلاقات وكونها موغلة فيما قبل التاريخ المسجَّل، وبعد ظهور الدين الإسلامي في القرن السابع للميلاد شهدت العصور الإسلامية الوسطى اللاحقة تطوّر الصلات بين المنطقين بطرق شتّى، ثم امتزج تراث الهندي المحلي بالتراث العربي الإسلامي الذي يعد مفخرة للعرب والهنود على حدِ سواء وبما ان الهند هو مكان هبوط آدم عليه السلام فجلب هذا الشيء الجغرافيين العرب منذ اقدم العصور فكان ابن بطوطة احد اشهر الرحّال الذين دخلوا الهند، ومكث هو فيها قرابة عشر سنوات ودوّن عنها كثيراً من المعلومات والأخبار والعادات والتقاليد، وهذه المقالة تلقي أضواءا على جوانب مختلفة لوصف الرحالة العصامى ابن بطوطة عن الهند فى الفترة ما بين عامي ١٣١٢-١٣٢٥م.

الكلمات الدليلية: إبن بطوطة، الأندلس، دلهى، محمد تغلق، الثقافة، الإقتصادية،المالية، الإجتماعية،الصين، كنكا، جمنا، طنجة، عليكره.

تعريف وجيز بإبن بطوطة

هو ابو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي المغربي المعروف بابن بطّوطه والملقب بأمير الرحالين المسلمين. هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه ولد في يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣هـ/١٣٠٤م فى طنجة بالمغرب.خرج من طنجه سنة ٧٢٥ه فسافر بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن والجزائر و تونس وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر والهند والصين وبلاد التتار ومناطق أفريقيا واتصل بكثير من الأمراء والرؤساء والملوك(١). عاد الى وطنه المغرب و أملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي و سماها **"تُحفة النُّظار فى غرائب الأمصار وعجائب**

• المحاضر المتعاقد في قسم اللغة العربية، جامعة كشمير

الأسفار"[٢] والتى ترجمت الى كثير من اللغات الشهيرة من البرتغالية و الفرنسية والإنكليزية وغيرها. وفى الأخير توفي فى المغرب سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م . لقّبته جامعة كامبريج فى كتبها المنشورة بـ" أميرالرحالة المسلمين الوطنيين**"**[٣].

وصفه للهند:

وصل ابن بطوطه فى شهر محرم من عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م إلى مدينة "ملتان" الواقعة على الجانب الغربي لنهر السند فأقام هناك قليلاً ثم غادر إلى دهلي وهى عاصمة الهند[٤] وتوجه مباشرة إلى الإمبراطور فتلقى إكراماً بالغاً من قِبله، فكان أوّل ما تحدث عنه بعد دخوله الهند هو وصف الأوضاع السياسية والإدارية والتنظيمية في السلطنة منذ القرن السادس للهجرة الموافق القرن الثانى عشر للميلاد، والتفت الى معرفة الماضي التاريخي للهند وأهم الأحداث السياسية فيه، وكان مصدره في سرد تلك المعلومات هو لقاء مع أحد الشيوخ الثقاة (حسب رأيه) هناك وهو الشيخ كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي ويصفه بـ"الإمام العلامه الفقيه"[٥]، كان حينئذ الإمبراطور غياث الدين تغلق شاه ملكاً في الهند و لذا يعد ابن بطوطة مصدراً تاريخياً مهماً لأسرة تغلق بما كان شاهد عيان مباشر على أهم الأحداث السياسية آنذاك، وقد أشار ابن بطوطة إلى لقب السلطان بوصفه الحاكم الأعلى في السلطنة والإقليم كذلك ويتبعه عدد من الإداريين في الأقاليم ويسميهم (النائب، اوالأمير) في حين يسمى الوالي الذي يجمع الضرائب والخراج ويتولّى أمر المدينة بـ(العامل أو الحاكم) أمّا (الخادم) فهو الموظف الذى يعمل تحت إشراف مسؤول كبير في مجال الإقطاع.[٦] التقى الرحالة ابن بطوطة لأول مرة بسلطان الهند محمد تغلق فى قصره فخرج الإمبراطور واستقبله بنفسه وبرفقة عدد من وزراءه وأقام له مأدبة كبرى وأهداه هدايا قيمة ومتنوعة أيضاً تفوق فى قيمتها قيمة ما جلبه الى الإمبراطور. ولم يفت ابن بطوطة ذكر**"السكّة"** (نقش إسم الخليفة) على نقود البلاد والتي كانت إحدى أهم مظاهر التبعية للخليفة فضلا عن ذكر إسمه بخطبة الجمعة والمناسبات كشيء من تأكيد الولاء والطاعة. وكانت سابقا تسك بإسم محمد تغلق نفسه ثم أزال إسمه ووضع إسم الخليفة بدلا منه.

امتازت رحلة ابن بطوطة في تقديم أخبار قيمة هامة عن الوضع المالي عامة في الهند، وفي ميدان الزراعة كانت أرض الهند ومناخها وسهولها العظيمة وأنهارها الرائعة خاصة نهر "كنكا" (Ganga)

"جمنا"(Jamuna) ونهر براهمابوترا (Brahmaputra) ونهرمهران (Indus) مليئةً بالعناصر العضوية التى ساعدت على احتراف أغلب سكانها لمزاولة العمل الزراعى، وقد ذكر لنا ابن بطوطة انواعاً كثيرة من المزروعات النادرة ومنها: النبق والعنبه والشكّي والبركي والتندو والنارنج الحلو والحامض والمهوا (العنب) والشاماخ فضلاً عن حبوب القمح والشعير والحمّص وغيرها، وإنه ذكر عدداً من الأسواق ويعرف ذلك من خلال حديثه عن بعض المدن التي زارها وذكره أن: "أسواقها حسنة".

استعرض ابن بطوطة طبيعة الوضع الثقافي والعلمي للهند بكل ما أمكن له من الدقة في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد لأنه شاهد و لاحظ تلك الجوانب أكثر من غيره. ومن أهم المساجد التي ذكرها ابن بطوطة في الهند منها مسجد قوّة الإسلام بـ "دلهي" و مسجد مدينة بدفتن ومسجد مدينة "هيلي"Heili" حيث يسكن فيه عدد من الطلبة يتعلمون العلم وكان فيه سهولة مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر وللفقراء من المسلمين، إشتهرت الهند عبر التاريخ بأنها بلد الفلسفة والمعرفة وقد أدلى المؤرخون المسلمون العرب الذين زاروها في مصنفاتهم بآراء وأفكار قيمة عن علوم الهند ووفنونها، وكان بعض تلك العلوم خالصا نابعا من الحكمة الهندية القديمة كعلم الفلك والجغرافية والتنجيم والفلسفة وقد ذكر ابن بطوطة أن بعض الأطبّاء الهنود اشتهروا في أساليب معالجتهم للأمراض بفضل أدويتهم المتستخرجة من بعض الأعشاب والمواد المتوافرة في أرضهم لاسيما العود والكافور والقرنفل وغيرها من العقاقير[٧] وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلّم على استخدام الأدوية الهندية لعلاج اللأطفال و قال صلى الله عليه وسلّم :" عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية يستعط به من العذرة ويلد به من ذات الجنب".[٨] وصف إبن بطوطة كل هذه الأشياء بطريقة فريدة. وكما ذكرنا أن ابن بطوطة كان بارعاً في رسم المظاهر الاجتماعية وتوضيحها، فالشعب الهندى القرن الرابع عشر الميلادى كان يتكون من عدة طوائف بعضها عرقي وديني، و كذلك أديان منها سماوي وأكثرها وضعي، ونستدرك من كلام ابن بطوطة أن أهل الهند كان معظمهم من غير المسلمين وكانوا يسكنون فى القرى التى يرأسها الحكّام المسلمون، كما أن الإسلام كان من أهمّ الديانات الموجودة في الهند ومجاورتها، ولذلك فقد كان الحكم السائد فيها هو الحكم الإسلامي منذ القرن الثانى عشر للميلاد الا أن أهم الأديان في الهند كان الهندوسية

ولاسيما ديانة الآريين (ذوي البشرة البيضاء) كان لتلك الطائفة كتاب مقدس يمثل دستوراً لها يسمى "ويدا" (Veda) وهي كلمة سنسكريتيه تعني (المعرفة) وتظم مجموعة من الاناشيد والحكم المتعلقة بعباداتهم وبعض اشعارها تمجد الالهة الهندية مثل الإله فارونا (Varona) إله السماء، والإله سوريا (Sourya) إله الشمس، والإله "أجني" (Agni) إله النار و"أندر" (Andara) إله الرعد والمطر ومنها اشتقّت ملحمتا "مهابهارتا" و "راميانا"(Mahabharta & Ramyana)[٩]. كان المسلمون فى أقلية آنذك إلا أن ابن بطوطة ذكرهم بطريقة كأنهم يتمتّعون بالأغلبية ربّما لكثرة تعاملاته ومقابلاته معهم وبقلّة معاملاته مع طوائف هندوسية أخرى بما أن المسلين كانوا منتشرين في أغلب المدن الهندية التي زارها ابن بطوطة.

خاتمة

وبالجملة يمكن لنا بالقول إن وصف ابن بطوطة للهند فى عصره يحمل أهمية قصوى من نواح عديدة وزيارته إلى الهند أسهمت في استمرار التقارب بين المسلمين الهنود والعرب، و كما ذكرنا آنفاً أن ابن بطوطة قد نجح فى وصف الهند شاملا بكل معني الكلمة لأنه مهما وصف من الأشياء والأمور والملامح والمشاكل فقد سبر فى أغوارها و جاء برأي شخصي وحلّ فريد فيها بفهم عميق أنيق نادر، كما اختار لغة سلسة وأسلوبا رائعا فى وصف الأشياء، فكل ما كتبه عن الهند يتمتع به القراء والدارسين والباحثين إلي يومنا هذا.

هوامش المراجع والمصادر:

١. Andre Wink, Al-Hind: The Slave Kings and the Islamic Conquest, 11th and 13th Centuries, Vol. 2, BRILL, 2002, P229.
٢. تحفة النُّظار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط يحمل رقم : ١١١، وتوجد نسخة منه بخزانة الإسكوريال تحت رقم ١٦٦٦
٣. Nehru, Jawaharlal (1989), Glimpse of World History. Oxford University Press P. 752
٤. محمود الشرقاوي : رحلة ابن بطوطة من طنجة الى الصين ، مطبعة النجف (النجف-١٩٧٤) ،ص٢٣٢.
٥. ابن بطوطة :المصدر السابق، ج٣، ص١١٩.
٦. ابن بطوطة :المصدر السابق، ج٣، ص ٩٧
٧. ابو اطهر المباركبوري : "العلاقات الطبية بين العرب والهند" ، مجلة ثقافة الهند، ع٢، عام ٢٠٠٢، ص ١٣.
٨. ابن حجر : فتح الباري ، ج١٠، ص ١٨٣ ؛ المباركبوري : العلاقات الطبية ، ص١٤ .

٩. ابو الريحان محمد بن احمد البيروني:تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذوله , مطبة حيدر اباد الدكن (الهند – ١٩٥٨)،، ص ٧٧ ؛ حمدي : المرجع السابق، ص ٧٣.

الأبعاد الفنية في ثلاثية نجيب محفوظ

الدكتور صلاح الدين تاك•

تعتبر ثلاثية نجيب محفوظ من أعظم الروايات في الأدب العربي الحديث حيث جعلت الرواية العربية أن تحقق الكمال والجمال والعمق والبلاغة. وقد امتازت بأنها تقدم مفهوما واضحا لروايات نجيب مفحوظ وللواقعية التي استخدمها هذا الروائي الكبير في روايات مرحلته الأولى، كما تبشر بالطرق الجديدة والأساليب الحديثة التي اختارها نجيب محفوظ في رواياته الأخيرة[١].

تشتمل هذه الثلاثية على الشخصيات المتعددة والحوادث الكثيرة وتعتمد على رسم بأنوراما هائلة لمجتمع مصري بأكمله عن طريق تفاصيل دقيقة كثيرة عرضها مؤلفها ليعالج من خلالها جميع المشاكل الإجتماعية والسياسية والفكرية من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٤٤م، ويكشف عن حركة التغير وآثارها على الشعوب كلها[٢]. على هذا النحو صارت الثلاثية ما تشبه بالموسوعة الحقيقية عن الحياة المصرية من بداية الحرب العالمية الأولى الى نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة إذ تجاوز فيها المؤلف عن تصوير مشكلة إجتماعية لجيل معين إلى تصوير ثلاثة أجيال فقسّم هذه الثلاثية إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث روايات كاملة، وهي:

(١) "بين القصرين" (١٩٥٦) تمثل المجتمع المصري من نوفمبر ١٩١٧ إلى إبريل ١٩١٩م.

(٢) "قصر الشوق" (١٩٥٧) تمثل المجتع المصري من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٧م.

(٣) "السكرية" (١٩٥٧) تمثل المجتمع المصري من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٤م.

إنّ جميع أحداث هذه الثلاثية لا تدور حول بطل واحد أو بطلين بل هي رواية تؤجد فيها شخصيات عديدة وصلت إلى المائة تقريبًا، ولكل منها سماتها الخاصة وملامحها الذاتية ودور محدد في بناء الرواية. قد استمدها المؤلف من الواقع نفسه، غير أنه نقلها إلينا من مستوى الفرد إلى درجة النموذج العام[٣] معتمدا فيها على التغيير والحذف والإضافة لكي تصبح نماذج إنسانية عامة[٤]. فمن خلال هذه الشخصيات استطاع نجيب محفوظ أن يقدّم طبقات المجتمع مع جوانبها المختلفة وصراعاتها الداخلية والخارجية وآلامها وآمالها، ويشرّح الاتجاهات الأدبية والفكرية المتعددة

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

الشائعة في فترة ما بين الحربين العالميتين. ومن أهم هذه الشخصيات:

(١) السيد أحمد الجواد:

إنه رجل ذات ثلاث حيوات: له في الحياة الأولى وجه خاشع يتجه دائما إلى الله، ويؤدي بإيمانه الخصب النقي جميع فرائض الله من صلاة وصيام وزكاة في حب وسرور، ومع ذلك لم يتجنب من ارتكاب الإثم ولم يندم عليه. فإذا كان يلجأ إلى التوبة كان يطلبها بلسانه دون قلبه. أما حياته الثانية فكانت تبدأ سرية في الليل الذي كان يقضيه مع العوالم شاربا الخمر على أصوات غنائهن. فكان رجلا مرحا طروبًا ذا وجه الباسم المشرق. كان يعيش حياته الثالثة في أسرته حيث كان يحتل منها مكان الأب الرهيب حتى سأل إبنه ذات يوم لأمه: "هل يخاف أبي الله؟ ... لا أتصوّر أنّ أبي يخاف شيئًا"[٥]. وكذلك كان مستبدا صارما يطالب أبناءه وزوجته بالطاعة العمياء حتى أنه طرد زوجته من البيت لأنها زارت مسجد سيدنا الحسين بدون إذنه. وهنا يشبه هذا الأب بالأب القبلي الذي يتحدث عنه فريد (Sigmund Freud) في كتابه "التوتم والتابو" (Totem and Taboo) والذي يحرم على زوجته وأولاده جميع الحريات بينما يتمتع بها نفسه.[٦]

قدّم لنا المؤلف من خلال هذه الشخصية صورة مجردة للأب المصري الذي يمثل الإرهاب الأبوي المألوف في جيله. فلا شك فيه أنه نجح في تصوير هذه الشخصية ولكنه بالغ أحيانا في ذلك الإرهاب بحيث تبدو صورة الأب صورة كاريكاتورية حتى نحس كأنه من دنيا غير دنيانا[٧]. وقد حاول الأب جوميه أن يدافع عن موقف نجيب محفوظ قائلا: إنّ كثيرا من المصريين عرفوا هذه البيئات والتقوا بالناس بمثل هذه الصفات في تلك الأحياء[٨]، غير أنّ هذا الشيئ إستثنائي وليس عاديا وهو شيئ لا يقبله الأدب الفني الواقعي.

(٢) كمال أحمد عبد الجواد:

إنه أول نموذج يقدّمه نجيب محفوظ لإنسان العصر المعاصر الذي هو "حائر إلى الأبد" والذي ينتمي إلى جيل المأساة على وجه التحديد. فمشكلته مشكلة كثير من المصريين المثقفين الذين استقبلوا شابهم في العشرينات من القرن العشرين. إنّهم كانوا حيارى أين يجدون المثل الأعلى الذي يخلف ما تهدم من مثل أسلافهم العليا[٩]. وهذا يجدر بالذكر أن مؤلف هذه الرواية كان من هؤلاء الشباب، فمن الطبيعي أنّ مشكلتهم كانت مشكلته. ويمكن أنه أضفى إلى هذه الشخصية من نفسه الكثير كالحيرة والقلق والتخوف والشك المسبب بتناقضات موجودة في بيئته آنذاك. وقد يعترف به المؤلف نفسه إذ قال كاشفا التماثل والتشابه بينه وبين شخصية كمال: "إن كمال يعكس أزمتي الفكرية وكانت أزمة جيلنا كله".[١٠]

إنّ البيئة المتناقضة قد أثرت على تكوين كمال أحمد عبد الجواد. فإذا كان أبوه رهيبا صارما كانت أمه مثالا للمودة واللطف والحنان. وقد أصابته صدمة، وهو طفل صغير، وقعت عليه وقوعا حاطما عندما اكتشف بأن رأس الحسين رضي الله عنه، الذي أحبه وبجله، ليس موجودا في

مسجد الحسين كما كان اعتقاده. وتلقى صدمة ثانية عندما عرف بأن أباه يشرب الخمر ويزور العوالم في الليل. والعامل الخطير الذي أسهم في تكوينه متشائما هو خيبة أمله في الحب. فجميع هذه الصدمات والدراسات الفلسفية الغربية أدّته إلى فقدان اليقين والايمان والعقيدة في جميع القيم والمعتقدات حتى بدأ إيمانه بالمذهب يزول، كما أخذ ولوعه بالشؤون القومية يفقد، فأصبح ماديا حتى أخذ يشرب الغمر ويزور المبغى. ومع كل ذلك نجده يتغير في موقفه وفكره في نهاية الجزء الثالث من هذه الرواية حيث نجده يقول: "إنه من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن معنى بينما أنّ مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى". وكذلك أخذ يعتقد بأن "التصوف هروب كما أن الإيمان السلبي بالعلم هروب .... وإذن فلا بد من عمل، ولا بد للعمل من إيمان[١١]. وهنا أبرز المؤلف أثر البيئة على الفرد إذ جعل إبن أخت كمال وهو أحمد شوكت عاملا حاسما في تحوله من متاهات الشك إلى راحة اليقين، إنه هو الذي بسببه غاب الشك والحيرة واليأس من حياته وبزغ فيها فجر اليقين بحيث أخذ يعترف بأنّ الواجب الإنساني العام هو الثورة الأبدية، كما أخذ يؤمن بالحياة والناس ويرى نفسه ملزما باتباع مثلهم العليا ما دام يعتقد بأنها حق، والنكوص عن ذلك جبن وهروب. وإن تبدو صورة هذه الشخصية بعيدة عن النمطية البشرية أحيانا غير أنه نموذج "بمعنى آخر نرى له شبيها عند "بلزاك" حين يضفي من سمات العصر على شخصياته ما يجعلها تبدو كما لو كانت بعيدة عن الواقع بينما هي أكثر تجسيدا له من غيرها".[١٢]

(٣) أمينة:

إنّ صورة هذه الشخصية في الرواية صورة تاريخية تسجيلية صادقة لصورة المرأة من الطبقة المصرية التي كانت تعتبر آنذاك بأنها "لا تصلح إلا للقيام بدور المصنع الآدمي لا نتاج النسل، والبقاء كل فترات العمر خلف جدران البيت لتؤدي فروض الطاعة للزوج على طريقة الجواري المجلوبات من سوق الرقيق"[١٣]. وهذا هو السبب أننا نجدها في الثلاثية قعيدة الدار، رهينة إرادة زوجها، لا تعرف من العالم إلاّ ما يتراءى لها من نوافذ بيتها. وهنا إذ نقارنها مع الأم في رواية مكسيم غوركي (Maxim Gorki) مثلا، نجدها أكثر واقعية لأن نجيب محفوظ حاول محاولة تامة في أن يجعلها تمثل الأغلبية، في حين نجد الأم في رواية مكسيم غوركي تعبيرا عن الأقلية. وبكل ذلك تبدو الأم في الثلاثية أكثر واقعية فنًا وتاريخيًا واستمرت تظل مرجعا ثري العطاء لمن يريد أن يبحث عن صورة المرأة في المجتمع المصري في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.[١٤]

(٤) سوسن حماد:

قدّم المؤلف من خلال هذه الشخصية ملامح جديدة للمرأة، غير أن هذه الملامح لم يتحقق وجودها في المجتمع المصري إلا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك لأن المجتمع المصري لم يكن قبل هذه الثورة متقدما

ومتطورًا من الناحية الفكرية تجاه المرأة[١٥]، في حين تمثل ثلاثية نجيب محفوظ المجتمع المصري حتى ١٩٤٤ فقط. ومع أننا نجد مثل هذه النماذج عند مكسيم غوركي حيث يندر وجود معظم شخصياته في العصر الّذي كانت تمثله، ولكن غايته كانت غاية كثير من الاشتراكيين الذين يصورون في رواياتهم النماذج التي تبشرنا بالمستقبل الأفضل والتي تكون نادرة في الحاضر ولكنها ستكون عامة في المستقبل. وهذا لون من ألوان النبوة التي استغلها نجيب محفوظ في تصوير هذه الشخصية "ليضفي على عمله ميزة استشفاف المستقبل إلى جانب الكشف عن الواقع الّذي خلق مثل هذا النموذج"[١٦].

(٥) ياسين:

إنّ هذه الشخصية سطحية بُنيت على فكرة واحدة وهي شهوة جنسية، وقد تذكرنا بطبيعية "زولا" (Naturalism of Emile Zola) التي تبنى على أثر الوراثة والبيئة على الفرد. كان ياسين يعيش مع أمه التي طردها أبوه من البيت تأديبا لها ولكنه فر منها عندما اكتشف حياتها الفاسقة واللاأخلاقية وأخذ يعيش مع أبيه أحمد عبد الجواد. على هذا النحو إنه ابن الأب الّذي يقضي لياليه مع محظياته، والأم التي هي إمرأة بدون أي مبدء والتي تزوجت مرات بعد أن طلقها أحمد عبد الجواد. وقد أثرت هذه الأشياء على شخصية ياسين أثرا كبيرًا بحيث نجده يقضي مثل أبيه أكثر أوقاته مع المحظيات والمومسات، ويتزوج مثل أمه مرات ويطلق مرات حتى تزوج "زنوبة" وهي عالمة وكانت محظية أبيه من قبل.

ومن أهم شخصيات الرواية أحفاد أحمد عبد الجواد الثلاثة وهم رضوان وعبد المنعم وأحمد شوكت، وهم الطلبة الثلاثة الذين قدّم المؤلف من خلالهم ثلاثة اتجاهات لدى الشبان في فترة الحرب العالمية الثانية. إنّ رضوان انتهازي ووصولي لجأ إلى السياسة لا للشيئ إلاّ لأنها تعطيه المنافع والمغانم. ومن خلال عبد المنعم وأحمد شوكت يقدّم المؤلف صراعا مذهبيا شهده المجتمع المصري في الأربعينات من القرن العشرين. ولكل من هذين أخوين عقائده الخاصة لتنظيم حياته الإجتماعية على أسس معينة. أما عبد المنعم فهو من الإخوان المسلمين يرى في الإسلام دينا وعلما ومنهجا في الحياة. تزوج مبكرا لأنه بالنسبة له بمثابة الهروب من الاثم والخطيئة. وأما أحمد شوكت فهو اشتراكي بل نموذج جديد للبطل الثوري في أدب نجيب محفوظ. إنه ينخرط في النشاط الثوري السري والعلني، ولا يعيش من أجل ذاته فقط بل يعيش من أجل الجميع. وقد نجده يحاضر في الماركسية والاشتراكية ويحرر المنشورات الخطيرة ويوزعها بين الناس ولا يخاف هو من دخوله السجن بين آن وآخر.[١٧]

قد تذوق نجيب محفوظ خلال دراسته في الجامعة الآداب الأجنبية واتجاتها المختلفة وتأثر ببعض الثلاثيات، ومنها ثلاثية أرنولد بينت(Arnold Bennett)وثلاثية جون غالزوردي (John Galsworthy)[١٨]. فاذا بدأ كتابة ثلاثيته إنه استعان بهذه الثلاثيات وبمعظم الاتجاهات المذكورة بحيث

أصبحت ثلاثيته مزيجة من أكثر المدارس والاتجاهات، غير أننا نلاحظ فيها سيطرة طبيعية "زولا" من ناحية أثر الوراثة والبيئة على الفرد، وواقعية بلزاك (Balzac) من ناحية تصوير التفاصيل الدقيقة للحياة. فاذا نتحدث مثلا عن روايات "زولا" التجريبية نجد أن الرواية ليست تصويرا للحياة و تعبيرا عن الواقع و إنما هي تجربة علمية لا تختلف في شيئ عن التجارب التي يجربها العالم في معمله حين يخرج الأحماض في أنبوبة الاختبار أو يصهر المعادن في البوتقة أو يزاوج الأرانب البيضاء بالأرانب السوداء ليرى كيف تعمل قوانين الوراثة في الأحياء"[١٩]. ولو نأخذ شخصية ياسين بهذا الاعتبار نجده يمثل جانبا عابثا لوالديه. وكذلك نجد أبناء السيد أحمد عبد الجواد يرثون عنه كثيرا حتى أنه هو الّذي ورث عن أبيه بعض الأشياء على نحو ما نعرف من قول فهمي التالي لأخيه ياسين حين ظهر مللّه السريع من زوجته: "كان لنا جد يمشي مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعك أن تكون وريثه"[٢٠]. وكذلك لا يمكن للجيل الثالث لأسرة أحمد عبد الجواد أن يهرب من السمات الوراثية. فابن ياسين يفتقر مثل أبيه إلى القوة التي تجعل الإنسان أن يقاوم الفساد والرشوة، في حين نجد إبني خديجة أحمد وعبد المنعم قوييّ الإرادة مثل أمهما. على هذا النحو نتفق على أن المؤلف استخدم عنصر الوارثة في هذه الرواية، إلا أنه لم يستخدمه كما إستخدمه الطبيعيون لأننا لا نجد نجيب محفوظ يجرب تجاربه مثلما يجربها العامل في معمله[٢١] وأكثر من ذلك أن عنصر الوراثة في الثلاثية من أحد العوامل كمحور للتطور الفني والموضوعي وليس عاملاً حاسما فيها.[٢٢]

إستعان نجيب محفوظ في هذه الثلاثية بواقعية بلزاك التي تقيم على "التوسع في وصف الجزئيات وتكديس التفاصيل لإيهام القارئ بواقعية ما يراه ويسمعه"[٢٣]. مثلاً إنه وصف بطريقة مفصّلة كيف أحست أم أمينة عندما انتعلت حذاءها. وكذلك نجده يصف شخصية أمينة بالتفاصيل التالية قائلا:

> "كانت في الأربعين، متوسطة القامة تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلئ في حدوده الضيقة، لطيف التنسيق والتبويب، أمّا وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحيته، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي". [٢٤]
>
> فالوصف الأول هو وصف الجزئيات وأمّا الثاني فهو إسهاب وتكديس في وصف الشخصيات وهو وصف يشبه بالصورة الفوتوغرافية التي تستعمل لتحقيق شخصية ما. ومثل هذا الأسلوب كان منتشرا في الروايات الفرنسية حيث كان

الروائيون يصفون الشخصيات كأنهم كانوا يصفونها للبوليس[٢٥]. فلا ريب فيه أن نجيب محفوظ يشبه "بلزاك" عندما اعتمد على التحليل النفسي الشامل ورسم بدقة بالغة شخصياته وعواطفها وتطورها وتحولها من حالة إلى حالة أخرى[٢٦]، غير أننا لا نستطيع أن نجعله تلميذا من تلاميذ مدرسة بلزاك الواقعية "وذلك لأن التفاصيل الدقيقة الكثيرة في أعمال هذه المدرسة تجعل البيئة وعاء زجاجيا يتشكل ما بداخله تشكلا حاسما جامدا". وهذا على النقيض مما نراه في ثلاثية نجيب محفوظ حيث تؤجد البيئة حصيلة حضارية لتاريخ المجتمع بحيث تحولت شخصياتها أنماطا نموذجية بغير أن يلجأ المؤلف إلى عملية التكثيف التي اعتمد عليها بلزاك خلال وصف شخصياته الروائية بحيث جاءت بعض هذه الشخصيات مفتعلة في بنيانها النفسي والإجتماعي[٢٧]. وأمّا نجيب محفوظ فإنه استخدم الواقعية في مدلولها الكبير الشامل مستعينا بكافة الأدوات الفنية القادرة على التعبير الصادق عن المشاكل والأزمات والقضيات الأخرى التي أراد أن يقدمها إلينا.

إمتاز نجيب محفوظ في رسم شخصيات هذه الرواية بطريقة علمية موضوعية ونجح في جعل كل منها متفرده بميزات واضحة محددة تميزها عن باقي الشخصيات. وقد نلاحظ في أكثر هذه الشخصيات أنها نامية ومتسقة حيث تؤدي بداياتها إلى نهاياتها بطريقة طبيعية. مثلا مريم الفتاة الغزلة عاشت في البيئة التي أمالتها إلى التبرج والتهتك، وفي النهاية أنها تحولت إلى مديرة بار. وهذه النهاية نهاية طبيعية رجوناها في البداية نفسها. فلو جعلها المؤلف رئيسة لجمعية دينية مثلا، لكانت هذه النهاية مفتعلة إلى حد كبير[٢٨]. ومعنى ذلك أن شخصيات الثلاثية لا تسير وفق مشيئة المؤلف وإنما تتبع محتملات التصرف الموجودة في بناء هذه الشخصيات منذ بداية الأمر.

إنّ فلسفة حركة الزمن تكمن في هذه الرواية وتوضح لنا أن الزمن قادر على التغيير في الفكر والاعتقاد وأسلوب الحياة[٢٩]. فإذا أخذنا هذه الثلاثية بهذا الاعتبار، لاحظنا أن كل جزء منها يقدم جيلا معينا يحمل أفكار معينة وأسلوبا معينا في الحياة. فإذا انتهى هذا الجزء تنتهي هذه الأفكار وتنشأ أخرى جديدة، وكذلك يندثر أسلوب في الحياة ويتولد الآخر الجديد. مثلا في بداية الرواية كاد السيد أحمد عبد الجواد يطلق زوجته عندما زارت مسجد الحسين بدون إذنه، ولكنه في آخر الرواية تزور السكرية بدون أي خوف وحزن. وإذا وجدنا فهمي المنتمي إلى الجيل القديم لا يجرؤ أن يتكلم مع أبيه عن زواجه من مريم، نجد عبد المنعم الّذي ينتمي إلى الجيل الجديد، يتكلم مع والديه بدون تردد عن زواجه من ابنة خالته[٣٠]. وكذلك نجد إبني خديجة في الجزء الأخير من الرواية يحاوران

أمامها عن أي موضوع يرغبان فيه، بينما كانت هي قديما لا تجرؤ حتى على تناول الطعام أمام أبيها. وأنظر إلى مزيد من التطور من الناحية الفكرية: فإذا كان جيل كمال أحمد عبد الجواد مترددا بين الشك والحيرة، نجد الجيل الجديد "يشق سبيله العسير إلى هدف بيّن دون شك وحيرة"[٣١]. بالرغم من كل ذلك أن الزمن ليس شيئا حاسما في هذه الرواية لأنه من الممكن أن هذا المفهوم يجعل الثلاثية رواية تاريخية. فالزمن في هذه الرواية إطار فني استخدمه نجيب محفوظ كوسيلة فنية لعرض قضيات معينة ولتعبير عنها بطريقة مطمئنة صادقة.

ونلخص أخيرا أنّ نجيب محفوظ لم يعتمد في تقديم الثلاثية على المدرسة الطبيعية والواقعية فحسب بل إنه استعان في نفس الوقت بمذاهب الأدب الأخرى. فهذه الثلاثية إذن من روايات المدرسة الطبيعية عندما اعتمد مؤلفها على عنصر أثر الوراثة والبيئة على الفرد، غير أنه طور هذه المدرسة الطبيعية إلى الحد الّذي اقتربت فيه من الواقعية اقترابا كثيرا. ومثل هذا التكنيك الجديد نجده في ثلاثية جون دوس باسوس (John Dos Posses) الّذي قدم رؤية نقدية لبلاده الأمريكية من خلال تكنيك روائي جديد كل الجدة[٣٢]. وكذلك تنحو هذه الثلاثية منحى الواقعية النقدية حيث لم يكتف المؤلف بتسجيل حوادث الفترة من الزمن وبتصويرها وإنّما بيّن ما في هذه الفترة من متناقضات وأزمات وتطورات معترضا بعنف وبلا هوادة على جميع الاتجاهات السلبية التي تنحرف بالجماهير عن قضيتهم الحقيقية[٣٣]. وقد تنتمي هذه الرواية إلى الواقعية الاشتراكية عندما إهتم المؤلف بالشخصيات الثورية الإيجابية من أمثال أحمد شوكت و سجل تطور الواقع الّذي أدّى في نهاية الرواية إلى بروز "الثورة الأبدية". فكمال أحمد عبد الجواد مثلا الّذي كان حائرًا ومترددا وسلبيا في بداية الرواية أصبح في نهاية الرواية مؤمنا بالحياة والناس، ملزما نفسه بالثورة ومعتقدا بأن النكوص عنها جبن وهروب. [٣٤]

وهذا جدير بالملاحظة أننا نلاحظ في هذه الرواية أثر العنصر الرومانسي أيضا على نحو ما نعرف من حب كمال لعايدة وهو حب أفلاطوني إذ تجاوز مألوفا عاديا إلى مثالي مقدس حيث يرتفع الحبيب إلى درجة المعبود[٣٥]. وكذلك أبرز المؤلف في ختام كل جزء من الثلاثية فلسفة الموت والميلاد. فينتهي "بين القصرين" بموت فهمي وتنتظر الأسرة أن تلد عائشة، وينتهي جزء "قصر الشوق" بموت زوج عائشة، وينتظر ياسين أن تلد زوجته. ثم تنتهي رواية "السكرية" بموت الأم وينتظر ياسين أن تلد إبنته. وإن يدلّ كل هذا على الفلسفة الميتافيزيقة[٣٦]، غير أن المؤلف لم يهتمّ بها مثلما إهتم بالمذهب الواقعي حيث إستفاد من طبيعية زولا وواقعية بلزاك والاشتراكية الروسية والروايات الواقعية الانجليزية. فإنه لم يتقيد نفسه بمدرسة فنية واحدة وإنما انتقى منها أهم أدواتها الفنية التي اعتبرها قادرة على تقديم غرضه وتحقيق هدفه، فقد خرجت من جميعها واقعية تختلف عن الواقعيات المذكورة ولا نخطئ لو نسماها بالواقعية

العادية المصرية أو الواقعية التقليدية كما يقول نجيب محفوظ نفسه.

المراجع والمصادر:

١. HAMDI SAKKUT: The Egyptian Novel and its Main Trends, Dar al-Maaref, Cairo, 1971, p:124-25
٢. عبد المحسن طه بدر: *الرؤية والأداة* (نجيب محفوظ) دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٩٨٥، ص: ٢٥
٣. طه وادي: *صورة المرأة في الرواية المعاصرة*، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٧٣، ص: ٣٣٢.
٤. علي الراعي: *دراسات في الرواية المصرية*، المؤسسة المصرية العامة، للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص: ٢٤٩-٢٥٠
٥. نجيب محفوظ: *بين القصرين*، (الاعمال الكاملة، الجزء الخامس) المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، ص: ٦٢
٦. يوسف الشاروني: *دراسات في الأدب العربي المعاصر*، مطابع كوستا تسوماس وشركاءه، شارع وقف الخربوطلي بالظاهر، ١٩٦٤، ص: ٦٧
٧. فاطمة الزهراء محمد سعيد: *الرمزية في أدب نجيب محفوظ*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١،ص: ٩٨
٨. الاب جاك جومييه: *ثلاثية نجيب محفوظ*، (ترجمة الدكتور نظمي لوقا) دار مصر للطباعة ١٩٥٩، ص: ٥
٩. نفس المرجع: ص، ٦٦
١٠. غالي الشكري: المنتمى، *دراسة في أدب نجيب محفوظ*، دار الثقافة العربية للطباعة عابدين، ١٩٦٤، ص: ٧
١١. نجيب محفوظ: *السكرية*، (الاعمال الكاملة، الجزء السادس) المكتبة العلمية الجديدة، بيروت ص: ٢٠٩، ٣١٧.
١٢. غالي الشكري: المنتمى، دراسة في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٩.
١٣. أنور المعداوي: مجلة "الاداب" إبريل ١٩٥٨، ص: ١٩
١٤. صورة المرأة في الرواية المعاصرة، ص: ٣٥٦
١٥. نفس المرجع، ص: ٣٦٣
١٦. يوسف الشاروني: دراسات في الأدب العربي المعاصر،ص:٨٢
١٧. السكرية، ص: ٢٥٣
١٨. لويس عوض: *دراسات في النقد و الأدب*، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦٣، ص: ٧٤
١٩. نفس المرجع، ص: ٧١
٢٠. بين القصرين، ص: ٣٠٨
٢١. SASSON SOMEKH: The Changing Rhythm A Study of Najib Mahfuz's Novels, E.J. Brill, Leiden, the Netherlands 1971, p: 109-110
٢٢. لويس عوض، ص: ٦٣
٢٣. نفس المرجع، ونفس الصفحة
٢٤. بين القصرين، ص: ٦
٢٥. لويس عوض، ص: ٦٣
٢٦. The Egyptian Novel and its Main Trends, p: 126-27
٢٧. المنتمى: دراسة في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٢١
٢٨. علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية،ص :٢٥٨-٩
٢٩. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١١٣
٣٠. السكرية، ص: ٢٢٦-٢٢٧

٣١. نفس المرجع، ص: ٢٢٤
٣٢. صبري حافظ: مجلة "الاداب" نوفمبر ١٩٦٤، ص: ٢١
٣٣. نفس المرجع، ص: ٢٢ وعلي الراعي: دراسات في الرواية المصرية، ص: ٢٥٤
٣٤. السكرية، ص: ٣١٩
٣٥. صورة المرأة في الرواية المعاصرة، ص: ٣٣٤
٣٦. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١١٨

نشأة العصبة الأندلسية ودورها في تطوير الأدب العربي

الدكتور عبد الرحمن وانى•

هاجر السوريون واللبنانيون إلى أمريكا الشمالية والجنوبية منذ المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى المنتصف الأول للقرن العشرين. وكانت الهجرة إلى أمركا الشمالية في بداية الأمر فحسب ولكن لم يلبث حتى هاجر عدد كبير من اللبنانيين والسوريين إلى أمريكا الجنوبية. لم يختلط المهاجرون بمواطنين أمريكا الشمالية أو الجنوبية في بداية الأمر لأن البيئة الثقافية الجديدة كانت مختلفا كلّ الاختلاف ولهذا مكثوا في جاليات بعيدة عن الثقافات الجديدة طبعوها بطوابعهم الشرقية. لاحتفاظ لغتهم ووراثتهم أصدروا الجرائد والمجلات وبعد ذلك انشأوا النوادي والروابط لاحتفاظ اللغة العربية وتقافتهم(١). تعلّموا اللغات الانجليزية والبرتكيزية والأسبانية وغيرها ونشروا في المجلات والجرائد الأبحاث الأدبية والمعالجات الاجتماعية. وكان من نتاجهم تراث أدبيّ قيّم فيما بعد يمثله في أمريكا الشمالية جبران وأمين الريحاني وأيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة ورشيد أيوب كما يمثّله في أمريكا الجنوبية الياس فرحات والشاعر القروي وفوزي المعلوف وشفيق المعلوف وغيرهم وجلّهم من اللبنانيين(٢).

ومن الروابط والنوادي التي أسسها المهجريون في

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية، بجامعة كشمير.

البرازيل هي "رواق المعرّي" التي أسسها فريق من الشباب، ومنهم من يحمل مشعل الأدب ومنهم من يتذوق الأدب، وراحوا يعقدون الجلسات الأدبية، وزادهم فيها القصائد التي كان تطلع بها الصحف المصرية، في طليعة الشعراء الّذي كان نتاج أفكارهم مدار البحث في تلك الجلسات: أحمد شوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران. ولم تنتج هذه المؤسسة الأدبية عمليا إلاّ أصدار ديوان تذكار المهاجر لقيصر المعلوف وهو أوّل ديوان من الشعر العربي صدر في العالم الجديد ولكنها مهدت السبيل لتأسيس صحف عديدة ظهرت في فترات متفاوتة، عدا عن أنّها شحذت القرائح، ودفعت البعض من المؤسسين إلى انتهاج مسلك الأدب". (٣)

والجمعية الأخرى هي "الرابطة القلمية" التي أسست في ١٩١٦م في أمريكا الشمالية ولكن اختفت بعد بضع شهور ثم أسست مرة ثانية في عام ١٩٢٠م برئاسة جبران خليل جبران ومكثت حتى وفاة رئيسها في عام ١٩٣١م. أدت الرابطة رسالتها في عمر قصير في العالم العربي كلّه. وبعد وفاة جبران تبعثر أعضاء الرابطة ولكن في نفس الوقت ظهرت جمعية أخرى في المهجر الجنوبي وهي "العصبة الأندلسية" لسد الفراغ الّذي تركه انتشار الرابطيين. والعصبة الأندلسية تألفت في مدينة سان باولو بالبرازيل في يناير ١٩٣٣م من الكتّاب والشعراء في تلك البلاد فنفذها الشاعر اللبناني المهاجر ميشال المعلوف ودعمها بالبذل السخي والرعاية. وكان صاحب الفكرة في تاسيسها المرحوم شكر الله الجرّ ولعل السبب في هذه التسمية لعصبتهم هو الجو الأسباني الّذي يطبع الحياة العامة في أمريكا الجنوبية، وكأنه قد أثار كوامن الشجن في نفوس هؤلاء المهاجرين وأعادهم إلى ذكريات العرب أيام مجدهم بالأندلس. وقد فسّر حبيب مسعود

معنى تسمية جمعيتهم هذه بالعصبة الأندلسية فقال "إنّه التيّمن بالتراث الغالي الّذي تركه العرب في الأندلس، والإشارة إلى ابتعاد عن التطرف الّذي اتّسمت به الرابطة القلمية"(٤).

وكذلك نلاحظ أنّ غلبة الجانب المحافظ على أدب العصبة الأندلسية يرجع إلى بعدهم عن تيارات الثقافة الغربية في البرازيل بالنسبة لأبناء الرابطة القلمية الّذين استقروا في "نيويورك" ولعله يرجع أيضا إلى أن معظم أبناء هذه المدرسة لم ينالوا حظا وفيرا من التعليم فكانت ثقافتهم الشعرية ثمرة جهدهم الخاص، وكان الشعر العربي القديم يمثّل لهم النموذج الّذي يجب احتذاءه بحسبانه المحصلة النهائية للشعر العربي. (٥)

ومن أعضاء العصبة البارزين: شكر الله الجر ورشيد الخوري ونطير زيتون وجورج المعلوف وتوفيق قربان واسكندر كرباج والياس فرحات وعقل الجرّ وحبيب مسعود وأنيس الرأسي وشفيق المعلوف وتوفيق ضعون وقيصر الخوري ونصر سمعان ويوسف اسعد غانم ويويسف البعيني وجورج حسون المعلوف وغيرهم. أما رئاسة العصبة الأندلسية فقد آلت تباعا إلى ميشال المعلوف والشاعر القروي، ثم إلى شفيق المعلوف.

وظلّ أعضاء العصبة ينشرون إنتاجهم الأدبي في مجلة الأندلس الجديدة لصاحبها شكر الله الجرّ لعدة عام، ثمّ صدر العدد الأوّل من مجلة العصبة الأندلسية عام ١٩٣٤م وتولّى حبيب مسعود رئاسة تحريرها. وقد ظلت هذه المجلة منارا مضيئا حتى سنة ١٩٤١م حيث توقفت عن الصدور بناء على أمر من رئيس جمهورية البرازيل الّذي منع بموجبه إصدار أي كتاب أو صحيفة أو منشور في غير لغة البلاد الرسمية ولكنها عادت إلى الصدور سنة ١٩٤٧م بجهود شفيق المعلوف وعطائه السخي، وعاد حبيب

مسعود إلى رئاسة تحريرها من جديد ولكنها عادت وتوقفت نهائيا في عام ١٩٥٤م. [٦]

كانت هذه المجلّة مجلة راقية تقع في ١٠٠ صفحة تقريبًا من القطع المتوسط عدا صفحات الاعلانات التجارية، وكانت مجلة شهرية يحمل غلافها في كلّ عدد صورة لأثرباق، أو مكان معين في أرض الوطن، أو لوحة فنية. ضمّت المجلة على صفحاتها مقالات عربية وأخرى معرّبة، تشمل فروع المعرفة من الآداب والعلوم والفنون الإنسانية، وهناك الشعر العربي القديم والمعاصر والشعر الغربي والمواضيع العلمية والثقافة العامة وبعض الأخبار. أمّا باقي صفحات المجلة ففيها أبواب ثابتة تحت عناوين مختلفة تنظمها في كل عدد منها باب مباحث لغوية وباب نوادر وفكاهات وهو من طرائف العالمية وباب مؤلفات وهو للمؤلفات التي تصدرها "العصبة الأندلسية" أو الصادرة في الشرق العربي وباب طرائف علمية للأخبار العلمية القصيرة وباب من الأدب العربي وهو يعرض نص أدبي أو للحديث عن أحد أدباء المشرق أو لنشر بعض المقالات من صحافة المشرق وباب من أدب الغرب وفيه ما تترجمه أعضاء "العصبة الأندلسية" من الأدب الغربي إلى العربية وتقدمه للقراء. وقد قدمت المجلة للأدب العربي خلال مسيرتها مجموعة من الأعداد الخاصة التي تنم على المجهود الّذي بذله القائمون عليها ومن هذه الأعداد:

١. عدد خاص عن شاعر العرب المتنبيّ في ذكرى مرور ١٠٠٠ سنة على وفاته، وذلك في آب ١٩٣٥م.
٢. عدد ممتاز في كانون الأوّل ١٩٤٠م، متعدد المواضيع ضم قسما خاصًا من الشعر والنثر باللغة البرتغالية.
٣. عدد خاص لنشر رواية الشاعر فوزي المعلوف "ابن

حامد وسقوط غرناطة" في عدد تشرين الأوّل ١٩٥٢م.

أمّا انشاء العصبة الأندلسية فلا تختلف أهدافها عن أهداف الرابطة القلمية كثيرا. فهناك رغبة مشتركة في الحفاظ على اللغة العربية وبثّ روح التآخي بين الأدباء في المهجر وجمع شملهم ورعايتهم وتسهيل نشر انتاجهم في المجلّة أو من خلال المجموعات والدواوين الشعرية وأقامة جسر حيّ بين هذا الأدب ونظيره في الوطن العربي الكبير خصوصًا بعد توقف نشاط الرابطة القليمة.

وعلى طراز المآل الّذي انتهت إليه الرابطة القلمية في نيويورك بوفاة جبران خليل جبران قد انتهت العصبة الأندلسية في أثر وفاة بعض أعضائها وانفضاض البعض الآخر من حولها وعودة الآخرين إلى الشرق كل ذلك بعد أن قدّموا للأدب عصارة قلوبهم وعقولهم تاركين للأجيال خلفهم ثروة أدبية مهجرية يفتخر بها الأدب العربي المعاصر. ويظلّ جزءًا مهما فاعلا في دائرة الابداع الأدبي الحديث.

وكان أعضاء العصبة الأندلسية فريقين، فريق من الشعراء وآخر من الأدباء الناثرين. أمّا الشعراء فهم: رشيد سليم الخوري الشاعر القروي وقيصر سليم الخوري الشاعر المدني وشكر الله الجرّ صاحب فكرة انشاء تلك العصبة والياس فرحات ونصر سمعان ورياض المعلوف وشفيق المعلوف ونعمة قازان وجبران سعادة وميشال المعلوف وعقل الجرّ وحسني غراب وغيرهم الذين انتشروا في أنحاء البرازيل.

وكان نتاجهم من الشعر قصائد كثيرة بجانب الدواوين التي أصدروها على الرغم من اختلافهم في مستوى الثقافة ومنهم من مزج بين العربية واللغات الأخرى فأثر وتأثّر.

ومن الناثرين فهم حبيب مسعود ونظير زيتون ويوسف

البعيني. وكان حبيب مسعود رئيس التحرير لمجلة العصبة منذ صدورها حتى احتجابها. كما كان خطاطا جميل الخط وقد كتب بخطه الجميل "ملحمة عبقر" لشفيق المعلوف. كما كان هناك توفيق ضعون وجورج حسون المعلوف من مشاهير الناثرين المهجريين.

وكان القروي والفرحات ومن قبلهما أبو الفضل الوليد شعراء الوطنية وكانت أصواتهم الشعرية الوطنية تصل إلى الشرق مدّوية. فتتردد أصداؤها في كلّ مكان. وكان أوّل بروز القروي على أثر الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧) في ديوانه الأعاصير الّذي منعت السلطات الاستعمارية الفرنسية دخوله إلى سوريا ولبنان.

أمّا شفيق المعلوف فقد تميّز بالشاعرية الرقيقة والخيالات المحلّقة والصور الناعمة والعبارة الدقيقة العذبة ويظهر ذلك كلّه في جميع دواوينه الشعريّة أو كما يتجلّى في ملحمته "عبقر".

وكان شكر الله الجرّ شاعرا رقيقا كذلك، جميل الصور والخيالات الشعرية. كما يتجلّى ذلك في دواوينه الشعرية المتعددة من "الروافد" و "زنابق الفجر" المطبوعين في البرازيل إلى آخر دواوينه العديدة التي صدرت في لبنان حتى وفاته ١٩٧٥م. وكان كذلك ناثرًا وله كتابان نثريان مطبوعان في البرازيل هما "المنقار الأحمر" و "نبي أورفليس" كما صدرت في الوطن روايتان طويلتان.

وشجعت العصبة على نشر إنتاج الشعراء البارزين من أعضائها فنشرت من الدواوين "ديوان للقروى" و "أحلام الراعي" للشاعر الياس فرحات و "زنابق الفجر" و "الروافد" للشاعر شكر الله الجرّ و "عبقر" و "لكل زهرة عبير" و "نداء المجاديف" للشاعر شفيق المعلوف وذلك بالإضافة إلى ثلاثة

عشر مجلدا من مجلة العصبة بعدد سنوات صدورها، حافلة بالمقالات والنقد والشعر والقصص وغير ذلك.[٧]

يتفق المؤرخون على أن المهجريين في أمريكا الشمالية والجنوبية وفي البلدان الأخرى قد أدوا للعالم العربي رسالة كبرى عندما ألفوا كتبًا بلغات أجنبية ضمنوها رسالة الشرق الروحية وتاريخ حضارة الأمة العربية وثقافتها شارحين فلسفتها وآدابها وعلومها، مترجمين سير المشاهير من رجالها وآثار الكبار من شعرائها. كتبوا باللغة الانجليزية للولايات الشمالية وبالأسبانية لأمريكا اللاتينية وبالبر تغالية لجمهورية البرازيل. كتب جبران والريحاني ونعيمة والدكتور فليب حتي والدكتور نبيه فارس والدكتور حبيب كاتبه ويوسف الغريب في اللغة الانجليزية.

ولم ينظم الشعر بالانجليزية إلاّ جبران ونعيمة ومسعود سماحة بل ألف جميل منصور حداد عشرين كتابا في اللغة الانجليزية. وكذلك علّمت مدرسة وديع اليازجي في سان باولو برازيل اللغة العربية لخمسة ألف طالب من أبناء العرب وغيرهم.

وهكذا نفذ الأدب المهجري إلى الأوساط العلمية حاملا رسالة العروبة فقرأه الأمريكي والانجليزي والفرنسي والأسباني.[٨]

ولقد كان أدب الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية بعيد الأثر في لبنان والعراق والحجاز والمغرب ومصر وقد نال ايليا أبو ماضي شاعر الرابطة القلمية الحظوة في سوريا والعراق حتى يقال إن لدواوين أبي ماضي رواجا في العراق لا يطاوله أي ديوان آخر. وكذلك كان المجاهدون يرددون شعر الشاعر القروى في حوران

وجبل الدروز وأطراف الجزيرة.[٩]

إنّ روح التقليد قد تسيطر أحيانا على شعراء العصبة الأندلسية في بداية طريق نضجهم الشعري حتى يستقلون بمذهب وهكذا كان بعضهم ظل حبيس أفق يتعداه وبعضهم استكشف آفاقا جديدة أثرت حياة شعرنا العربي الحديث. وإن الأدب العربي في البرازيل استطاع أن يعبر عن مشاعر صاحبه ويصوّر ما ارتسم في تفكيره ويسجّل ما رآه من وقائع يومه بأسلوب عربي متين تشعر معه بالقوة والحياة، ولا ترى فيه بلبلة في التركيب، ولا رطانة في التعبير ولا تشويشًا في الصيغة.

الحواشي:

١. محمد عبد الغني حسن، الشعر العربي في المهجر، دار مصر للطباعة ١٩٥٨م، ص: ٢٣-٢٤.
٢. جوزيف الهاشم، المفيد في الأدب العربي، الجزء الثاني، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت ١٩٦٤م، ص: ١٣٢.
٣. الياس قنصل: أدب المغتربين، سلسلة ثقافة الشعبية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص: ٢٨-٢٩.
٤. جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٦م ص: ٣٨٢.
٥. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي الحديث، الجزء الثالث، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ص: ٢٨-٢٨.

٦. عبد الرحيم محمود زلط: العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي، دار الفكر العربي، ص: ١٠٥-١٠٧.
٧. عبد الرحيم محمود زلط: ص: ١٠٦
٨. أنور الجندي: الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع (١٨٣٠-١٩٠٩) مطبعة الرسالة ١٩٥٩ – ٢ شارع حمودة المقاول – عابدين، ص: ٤٢٠-٤٢٣.
٩. مقالة ظهرت في مجلة "العربي" بعنوان رحلة الآداب العربي، في المهاجر الأميركية "للدكتور عيسى الناعوي، ص: ١٠٣

"الشحاذ": إنعكاس الأزمات النفسية[١]

الدكتور صلاح الدين تاك•

إنّ الفكرة الأساسية المسيطرة على روايات المرحلة الجديدة[٢] لنجيب محفوظ هي فكرة البحث العميق عن الحقيقة وعن المجهول وعن هذا الشيئ الّذي يفسر الأشياء كلها ويعطيها معناها العميق[٣]. وقد تتضح هذه الفكرة اتضاحا كثيرا في رواية "الشحاذ" التي هي حجر الزاوية للمرحلة التي تنتمي إليها والتي تعد نموذجًا بليغا من تجربة نجيب محفوظ الفنية. وقد تعالج روايات هذه المرحلة قضايا ذهنية ووجودية من خلال أبطالها الذين يعانون المشقة والعذاب خلال بحثهم عن المجهول وعن أسرار الكون وخفايا النفس البشرية وما إلى ذلك. وأما الرواية التي يساق عنها الحديث فكلمة "شحاذ" فيها يختلف عن غيره من الشحاذين. فالبطل شحاذ غني وعريق لا يحتاج إلى المال والجاه وإنما يحتاج إلى معرفة أسرار الكون ومعنى الحياة، ولذلك يطلب العون والمساعدة من كل ما في هذا الكون من قوى وعناصر بطريقة أو بأخرى.[٤]

تبدأ هذه الرواية عند ما يذهب "عمر الحمزاوي" وهو بطل الرواية، إلى عيادة الطبيب ويشكو إليه من ضيقه بكل الشيئ .... بزوجته وبناته وعمله وبكل من كان يرتبط به ويحيط به بل بالدنيا كلها. كان تشخيص الطبيب لمرض عمر الحمزاوي بأنه مرض بور جوازي ولكنه كان مرضا وجوديا يلح عليه ويضطره إلى أن يبحث عن معرفة أسرار الكون وما وراءه[٥]. وذلك لأن عمر الحمزاوي ليس كالناس المحدودي الثقافة الذين هم مطمئنون ولا يعرفون القلق المدمر والتأمل العميق الّذي عاناه عمر الحمزواي فلا شيئ يفسد عليهم بالحياة، وعلى الرغم منه أنهم يعيشون الحياة في دعة وأمن وسلامة. أمّا عمر الحمزاوي فهو ليس مثلهم، غير أنه لا يحاول أن يتقدم خطوة واحدة راسخة لبحثه عن المعرفة وإنما يزحف في طريق

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

البحث زحافا بطيئا بحيث تبعث أسرار الكون شيئا من الغموض في نفسه وعينيه على السواء[٦]. ونعرف هذا بوضوح إذ أشار اليه مؤلف هذه الرواية من خلال الطفل الّذي كانت تمثله اللوحة التي نظر إليها عمر الحمزاوي وهو في عيادة الطبيب. كان هذا الطفل "يمتطي جوادا خشيبا ويتطلع إلى الأفق عارضا جانب وجهه الأيسر وفي عينيه شبه بسمة غامضة[٧]. وهنا يمكن لنا أن نقارن هذه الرواية مع رواية "فاوست" (Faust) للكاتب الألماني "غوته" (Goethe) التي جاوزت جميع الحدود إلى ما لا النهاية من أجل البحث عن المعرفة. فإذا كان "فاوست" تمهيدا للنهضة العلمية عند الأروبيين، نجد عمر الحمزاوي في رواية "الشحاذ" ممثلا للانسان المصري وأزمته يعبر تعبيرا صادقا عمّا كان يدور في نفوس هذا الإنسان في الستينات من القرن العشرين.

كان عمر الحمزاوي في بداية حياته شاعرا وإشتراكيا ثوريا يحلم بمدينة فاضلة وعدالة اجتماعية وكان يعمل لتحقيق ذلك بجد و إخلاص. وكان في طريق الثورة والاحتجاج يشاركه صديقاه عثمان خليل ومصطفى المنياوي، ولكن إذا قبض على عثمان خليل خلال الجهاد والاحتجاج ترك عمر الحمزاوي الفن والشعر حتى طريق الثورة وأصبح محاميًا كبيرا بل رجلا ناجحا ثريا وكان عمره آنذاك عشرين سنة. أما صديقه مصطفى المنياوي فالتصق بالفن غير الجاد ولم يتجه إليهإلاّ لكسب العيش. فكان يكتب بقلمه فقط دون إيمان شخصي بما كان يكتب[٨]، حتى نجده يقول لعمر الحمزاوي في بعض اليوم: "لم يبق للفن إلاّ التسلية، وسينتهي يوما بأن يصير حلية نسائية مما تستعمل في شهر العسل". وكان عمر الحمزاوي كما ذكرنا آنفًا في بداية الأمر يتفكر في قضايا العدل والاشتراكية ولكنه خان مبادئ نضاله عندما تغيرت الظروف بحيث أخذت مقاومته تقل حتى أنه نفسه ترك إهتمامه بالشعر والفن مثل صديقه مصطفى المنياوي، ولكنّنا بالرغم من ذلك كله نجده يعبر عن ألمه العميق المسبب بقضية صديقه قائلا له: "إقرأ أي كتاب في الفلك أو في الطبيعة أو في أي علم من العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات أو دواوين الشعر ثمّ اختبر بدقة إحساس الخجل الّذي سيجتاحك[٩]. وهذه هي نفس القضية الّتي عبّر عنها نجيب محفوظ قبل ذلك في روايته التاريخية

"رادوبيس" حيث انتقد انتقادا عنيفا على الكتاب الّذين لا يكتبون إلاّ لكسب العيش فيشوهوا الفن تشويها بالغا[١٠].

إنّ بطل رواية "الشحاذ" في صراع مع بيئتهومع كل من يتعلق به وما يحيط به.وقد خلقت صراعهتلك الاضطرابات الّتيأخذت تضطربه بعد أن سئم من الحياة الزوجية وترك كفاحه السياسي في حين سُجن زميله بسبب كفاحه في سبيل الثورة. وكذلك إنه ترك الفن والشعر بعد أن أحس أن الفن أصبح مجرد لهو وتسلية ولا مكان له في الزمن الّذي سيطر فيه العلم على الحياة[١١] بحيث زال فيه اليقين وغابت عنه الطمأنينة بل زالت فيه كل القيم .... فالشعر قد مات، والعمل السياسي لم يعد له معنى، والعمل فقد قيمته. وهذه هي الأزمات النفسية الّتي فأجاته عندما وصل إلى سن الخامسة والأربعين. وهذه الأزمات عصفت بحياته وجعلته يشعر بأن كل شيئ لا معنى له، فهو يشخص مرضه بنفسه قائلا: "لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك، كل شيئ يتمزق ويموت، وكثيرا ما أضيق بالدنيا، بالناس، وبالأسرة نفسها". وقد اكتشف هو أن كل ما حققه من مال وجاه خلال عشرين سنة لم يستطع أن يعوضه عن فقد ذاته الحقيقية الّتي فقدها عندما شعر بأنه خان صديقه الثوري عثمان خليل الّذي اعتقل بينما اختار هو طريق السعادة والحياة الثرية. وبذلك ازدادت رغبته في الفرار من الواقع انتقاما من سنين الترف الّتي عاشها[١٢] كما ازدادت رغبته في إيقاع العقاب على نفسه ولا سيما بعد خروج عثمان من السجن كأنه لم يرد أن يراه عثمان متمتعا بحياة الترف بينما يقبع هو بين جدران السجن، على أنه أخذ يطمئن ضميره عن طريق المساعدات المادية لوالدي عثمان خليل، ولكن هذا الشيئ لم يكن يُريحه من قلقه وملله. وبذلك كله سئم سآمة شديدة من الناس والحياة كلها حتى ترك عمله وأهله وأصدقاءه وأخذ يغرق في الملذات الجنسية أحيانا والهذيان أحيانا أخرى كأنه كان يسعى إلى تلويث سمعته وتحطيم نفسه أو كان يبحث عن أسرار الوجود على حد تعبير نفسه في كثير من المواضع في الرواية. مثلا إنه قال لبعض شخص: "تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرضثمّ تستولي عليها الحكومة غدا" فأجابه هذا الشخص: "المهم أن نكسب القضية، ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها".[١٣]

قد ترك عمر الحمزاوي بيته والتقى بـ"وردة" في أحد النوادي الليلية فأقام مع هذه الفتاة في شقة جديدة وبقي معها لفترة من الزمن، إلاّ أنه لم يجد في هذه التجربة ما يشبع روحه الظامئة أو ما كان يبحث عنه بحيث تركها وانتقل إلى فتاة أخرى "مرجريت، ثمّإلى "منى" ولكنه لم يجد في هذه التجارب إلاّ اليأس والملل. فقد كشف هو أن نشوه الجنس لا تستطيع أن تدوم وبذلك كله أنه ترك هذه التجارب ورجع إلى بيته لعله يهديه الآن إلى التصالح مع واقعه. بالرغم من ذلك أنه لم يمكث به طويلاً فتركه من جديد وأخذ يشحذ بطريقة جديدة معتقدا بأنها طريقة البحث عن الحقيقة وسر الوجود وهي ألا يفعل شيئا، وها هو يقول: "آن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله في حياتي وهو ألا أفعل شيئًا".(١٤)

وفي هذه الأثناء خرج عثمان خليل من السجن وهو ما يزال ثوريا. إنه حاول أن يحل مأساة عمر الحمزاوي لكنه فشل فشلا تاما في ذلك. أما عمر الحمزواي فانه أخذ يقيم في حالة جنونية بمنزل بعيد بين الحقول حيث استغرق فيما يشبه التصوف معتقدا بأنه انتقاما من حياة الترف الّتي عاشها منذ عشرين سنة. وبعد ذلك اختلط هو بين الخيال والواقع وبنى لنفسه عالما سيطرت عليه خيالات وتصورات لامعقولية حكمها منطق غير منطق الواقع. مثلا كان يتخيل "أن بقرة اقتربت منه قائلة: إنها سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء. وزحفت حية رقطاء ثمّ بصقت أنيابها السامة وراحت ترقص في مرح. وانتصب الثعلب حارسا بين الدجاج. واجتمعت جوقة من الخنافس وغنت أغنية ملائكية. أما العقرب فتمدت له في لباس ممرضة"(١٥). وهنا يفسر نبيل راغب هذه اللامعقولية قائلا: إن عمر الحمزاوي تخيل أن هذه اللامعقولية ربما استطاعت أن تطرد الملل والخمود من حياته(١٦). وكذلك قال سليمان الشطي عن هذه اللامعقولية: إن عمر الحمزاوي كان يحمل بأن "ينقلب كلّ شر في هذا العالم إلى خير عام للانسانية". (١٧)

في نهاية الرواية عثر أهل عمر الحمزاوي وأصدقاءه على مخبأه ولكنهم لم يتدخلوا في عزلته ولكن الّذي وصل إليها هو عثمان خليل الّذي كان البوليس يطارده مرة ثانية فكان يطلب لنفسه الأمن والملاذ. إنه أخبر صديقه عمر الحمزاوي بزواجه من ابنته الكبرى

"بثينة" وبأنهما تتوقعان طفلا. وكذلك طلب منه عثمان أن يرجع إلى بيته لكي يحمي حفيده ويرعاه. ولكن عمر لم يعبأ بأي شيئ وإنما استمر أن يكون في حالة جنونه وذهوله بحيث يئس عثمان خليل منه إلى حد كبير. فلم يلبث أن يتركه حتى أحاطه رجال البوليس وقبضوا عليه وعلى عمر الحمزاوي أيضًا فأخذوهما إلى السجن في عربة واحدة. وقبل ذلك أصابت الرصاصة ترقوة عمر الحمزاوي الّتي كانت بمثابة "الصدمة الكهربائية والّتي يفيق المريض بعدها. وكأنها أصابت غيبوبته فشفي منها"[١٨]. فقد أفاق من غيبوبته وهذيانه بحيث ولد في نفسه حماسا للثورة مرة ثانية. فنجده يتمنى أن سيعوض سنوات نكوصه عن أي شيئ. وقد تفجر في نفسه الرجاء والأمل إذا اتفق على أنه سيحي حياة ثورية من خلال ابنه الأصغر "سمير" ويرعى حفيده وهو ابن صديقه الثوري عثمان خليل. فإذا شعر بأنه راجع في الحقيقة إلى الدنيا، أخذ يغني بيتا من الشعر الّذي تردد في وعيه بوضوح عجيب:

"إن تكن تريدني حقا فلم هجرتني؟". [١٩]

وهكذا أفاقه من هذيانه وجموده صديقه الثوري عثمان خليل الّذي بالرغم من قضائه عشرين سنة في السجن، ما يزال يؤمن بالشعب وباستمرار الكفاح وهو طريق الثورة الأبدية[٢٠]. ليس هذا فحسب بل انه مستعد لتقديم أي تضحية من أجل تحقيق الحياة الطيبة. وهذه هي أهم خاصية المذهب الاشتراكي الّذي استفاد منه المؤلف في ختام هذه الرواية فأبعد عنها عناصر التشاؤم وجعلها رواية متفائله. وهنا يجدر بالذكر أن في زواج عثمان خليل من بثينة رمزٌ لالتقاء الشعر والعلم. فبثينة تحفظ الشعر وتكتبه،وأما عثمان خليل فهو ثوري يؤمن بالعقل والعمل وزواجها تاكيد للقاء الشعر والعلم وللتجاوب بينهما بل وبين العمل في نفس الوقت[٢١]. وهذه هي رسالة نجيب محفوظ في كثير من رواياته حيث يشرّح أهمية العلم والأدب والعمل، ومع أن موقفه هذا قد يتضح اتضاحا كثيرا في هذه الرواية على نحو ما نعرف من قول عثمان خليل إذ يخاطب بطل الرواية عمر الحمزاوي: "لن تبلغأي حقيقة جديرة بهذاالاسمإلاّ بالعقل والعلم والعمل".[٢٢]

انتقد الدكتور عبد القادر القط على مؤلف الرواية قائلا: إنه من الحق أن الجنس والشراب والمتع الحسية من الوسائل الّتي يلجأ

إليها أكثر من يعانون الأزمات النفسية والّتي عانها بطل رواية الشحاذ، ولكنه من العجب أن يلجأ إليها شخص مثقف مثل عمر الحمزواي ... لكان "أجدر بمثل هذه الشخصية أن تتقلب في صراعها بين نزعاتها الحسية وتأملاتها الفكرية وشطحاتها الروحية ليصبح لها كيان مركب جدير بأن يحمل هذا المعنى الكبير الّذي أراد الأستاذ نجيب محفوظ أن يحملها إياه من بحث عن الله وعن سر الوجود". وقد استمر عبد القادر القط قائلا: كان على مثل هذا المفكر والشاعر أن يلجأ إلى طرق أخرى منها القراءة والتأمل ومراقبة الحياة والناس ولا يلجأ إلىالّتي لجأ إليها كالجنس والخمر وغيرهما[٢٣]. وقد نتفق مع الدكتور عبد القادر القط إلاّ أنّ نقده نقد أخلاقي وليس نقدا فنيا، والرواية الّتي يساق عنها الحديث ليست من الروايات المثالية الّتي لا تهتم إلاّ بتقديم الأشياء المثالية وتغفل عما حدث ويحدث في الحياة الواقعية إغفالا تاما، بل أنها على العكس رواية واقعية تعبر كما ذكرنا آنفا عن أزمة إنسان العصر الحديث من خلال عمر الحمزاوي الّذي يعكس أزمة الطبقة المثقفة المصرية وأثر هذه الأزمة على هذه الطبقة بوجه عام في الستينات من القرن العشرين. فهذا الشيئ ليس من نقائص الرواية بل إنه الّذي امتازت به الرواية إمتيازا خاصا، وأنه الشيئ الّذي يؤجد عند الكتاب الوجوديين الكبار من أمثال دانتي (Dante Alighieri: 1265-1321) وكيركغارد (SorenKierkgaard: 1813-١٨٥٥) وإبسن (Henrik Ibsen: 1828-1906) وبيكت (Samuel Beckett: ١٩٠٦-١٩٨٩) وغيرهم[٢٤]. بالرغم من كل ذلك لا مفر لنا من أن نتساءل عن إرادة نجيب محفوظ عن المعنى الكبير الّذي قصد هو بهذه الرواية: إذا كان عمر الحمزاوي حقا يبحث عن الله وسر الوجود فماذا فعل لكي يبحث عن هذه الحقيقة الخالدة بل متى فكر هو فيها تفكيرا جديا"؟[٢٥]

وفي الختام نؤكد أن رواية "الشحاذ" لكانت رواية متشائمة لو لم يهتم مؤلفها بالواقعية والاشتراكية مع اهتمامه الخاص بالوجودية. فإنه نجح بلا ريب في جعل روايته هذه أن تنتهي بطريقة إيجابية. ليس هذا فحسب بل أننا لا نجد فيها أي إشارة إلى انتكاس الأزمة، وهذه هي الأشياء الّتي امتاز بها نجيب محفوظ من معظم الكتاب الوجوديين من أمثال كيركغارد وإبسن وبيكت وغيرهم الّذين جعلوا

مؤلفاتهم متشائمة إلى أبعد حد. فقد تفقد مؤلفاتهم جميع الأشياء الايجابية الّتي أصبحت أهم خاصية رواية "الشحاذ" للأستاذ نجيب محفوظ. [٢٦]

المراجع

١. "الشحاذ" رواية نجيب محفوظ ظهرت سنة ١٩٦٥م.
٢. تحتوي هذه المرحلة على روايات ظهرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م.
٣. رجاء النقاش: أدباء معاصرون، مكتبة الأنجلوا المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٨، ص: ٢٢٠.
٤. نفس المرجع، ص: ٢١٨-٢٢٠
٥. فاطمة الزهراء محمّد سعيد: الرمزية في أدب نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨١، ص: ٢٩٥.
٦. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٨٧.
٧. نجيب محفوظ: الشحاذ، الأعمال الكاملة، الجزء السابع، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت (بدون التاريخ)
٨. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٩٣.
٩. الشحاذ، ص: ١٩٥.
١٠. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٩٣.
١١. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، مكتبة الشباب، ٢٦/ شارع إسماعيل سري بالمنيرة الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٨، ص: ١٤٨.
١٢. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٠١.
١٣. رواية الشحاذ، ص: ٣٠٩.
١٤. الرواية، ص: ٣٩٣.
١٥. الرواية، ص: ٤٠٣.
١٦. المأخوذ عن: الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٠٠.
١٧. نفس المرجع، ص: ٢٠٥.
١٨. نفس المرجع، ص: ٢٠٣.
١٩. الرواية، ص: ٤١٠
٢٠. الرمزية في أدب نجيب مفحوظ، ص: ٢٠١.
٢١. نفس المرجع، ص: ٢٠٩.
٢٢. الرواية، ص: ٣٨٩.
٢٣. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، ص: ١٤٨.
٢٤. J.E. TAMMANY: "RIYADH DAILY", December 14, 1988, P: 14
٢٥. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، ص: ١٤٨.
٢٦. J.E. TAMMANY: "RIYADH DAILY", December 14, 1988, P: 11

هجرة اللبنانيين إلى أمريكتين

الدكتور عبد الرحمن وانى•

موضوع الهجرة في العالم قديم قدم التاريخ وهجرة العرب من الموضوعات القديمة. ولقد أخذت العرب الترحال والتجوال في الوراثة من أجدادهم الفنيقيين كما توارثت لهم التجارة من الأسلاف[١]. فقد هاجر القحطانيون إلى شمالي الجزيرة العربية بعد انهدام سد مأرب. ومن القبائل المهاجرة المناذرة والغاسنة وقبائل بني هلال الّتي هاجرت أفريقيا تحت ظروف كثيرة وأهمها الاقتصادية[٢].

تعريف الهجرة: الهجرة هي حركة سكانية يتنقل الفرد فيها أو الجماعة من الموطن الأصلي إلى وطن جديد يختاره نتيجة أسباب عديدة منها صعوبة العيش في البيئة الّتي يعيش فيها كما يدعو الامام الشافعي إلى النزوح عن الوطن الّذي ليس فيه رجال العقل والأدب.

"ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمّن تصاحبه
وانصب فان لذيذ العيش في النصب
إنّي رأيت وقوف الماء يفسده
ان سال طاب وان لم يجر لم يطب"[٣]

ويقول في موضع آخر:

"إذا قيل في الأسفار ذل محنة
وقطع الفيافي واقتحام الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته
بدار هوان بين واش وحاسد"[٤]

وللهجرة قسمان، هجرة اختيارية وهجرة إجبارية،

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية، بجامعة كشمير.

هجرة اختياريه تتمّ بالمبادرة الفردية عادة رغبة في الانتقال إلى وطن جديد من أجل الأفضل. وهجرة إجبارية تتمّ بواسطة قوة خارجية تفرض على غير إرادة الأفراد أو الجماعات كما هاجر ٧٠٠ ألف فلسطيني مثلا بعد حرب ١٩٤٧ إلى البلدان العديدة. كذلك هناك نمطان للهجرة، هجرة دائمة وهجرة مؤقتة. هجرة دائمة يهاجر الفرد أو الجماعة إلى الوطن الجديد دون عودته إلى موطنه. وهجرة مؤقتة هي حيث يهاجر الفرد أو الجماعة إلى الموطن الجديد بصورة مؤقتة بغية التحصيل العلمي أو تحسين الوضع المالي أو لأسباب سياسية ولكن بعد وقت محدد يعود إلى وطنه الأصلي. أما المهاجر فهو عند جوزيف الهاشم: "إنسان ضاقت به أرجاء وطنه، لا لأنّه كره هذا الوطن، بل لأنّه وجد نفسه مكرها على تركه. فمثلاً من نير الحكم التركي وتعسف اصحابه إلى شبح الفقر والجوع والفوضى والفساد والحرب الأثيمة والحوادث الدامية، كلّ هذا أشعر المواطنين في لبنان وسورية بحرج وضيق، فانطلق جماعة منهم يفتشون عن بلاد أرحب حرية واقتصادا".(٥)

كانت الهجرة الأولى إلى أمريكا الشمالية فردية من أجل المعرفة وحب الاكتشاف، ثمّ لم يلبث حتى أصبحت جماعية من العشرات إلى المئات حتى الآلاف في كل سنة. ومن أبرز الأحداث المرتبطة بأولئك الرواد ما يذكره فيليب حتى من أنّ الأب الياس بن حنا الموصلي الكلداني قام برحلة إلى العالم الجديد استغرقت ٢٣ سنة (١٦٦٠-١٦٨٣) زار فيها عددا كبيرا من البلدان في أمريكا الشمالية والجنوبية، ثمّ رجع إلى بغداد وألّف كتابه الشهير "رحلة أوّل سائح مشرقي إلى أمريكة" تحدّث فيها عن البلدان الّتي زارها وثرواتها الهائلة وسكانها وطبائعهم وغير ذلك.

يعدّ انطونيوس البشعلاني أوّل مهاجر سوري هاجر إلى أمريكا الشمالية عام ١٨٥٤م وقد أقيم له نصب تذكاري في مدينة نيويورك يصفه بأنّه المغترب الأوّل إلى العالم الجديد. ولكن يرى بعض المورخين أن بدء هجرة العرب إلى الولايات المتحدة لم يتم بصورة فعلية إلاّ في عام ١٨٧٨م عند ما وطنت

أوّل أسرة سورية من دمشق الأراضي الأمريكية وهي أسرة يوسف عربيلي – وكان أوائل العرب السوريين الّذين اكتشفوا الفرص الاقتصادية السانحة في الولايات المتحدة من التجار الّذين قدموا لزيارة معرض فيلادلفية الدولي عام ١٨٧٦ وعرضوا المنتجات والبضائع السورية. وكان لمعارض مماثلة في شيكاغو وسان لوئيس دورا مشابها. وكانت رسائل المهاجرين المفعمة بالحماس والتفاؤل إضافة إلى الأموال المرسلة إلى ذويهم في ربوع الوطن عوامل مشجعة على انطلاق الهجرة السورية إلى العالم الجديد الّتي تنامت لتصبح هجرة جماعية منذ أواخر القرن التاسع عشر واتخذت شكل موجات متواصلة مختلفة في أسبابها وتكوينها ويمكن أن نعدّ الحقبة الواقعة بين سنتي ١٨٩٨م – ١٩٢٤م حقبة أساسية بالنسبة للهجرة العربية إلى الولايات المتحدة، حيث وصل عدد المغتربين السوريين في عام ١٩١٣م وحده إلى ما يقرب من عشرة آلاف مغترب. هبطت الهجرة بسبب أوضاع الحرب العالمية الأولى لكنها عاودت نشاطها بعد الحرب لتنخفض مجدّدا بعد عام ١٩٢٤م بصورة ملموسة إلى بضع مئات وذلك بسبب التشريعات الأمريكية المختلفة. وكانت اكثرية المهاجرين الأوائل من الطوائف المسيحية الشرقية وقد عمل معظمهم باعة متجولين، وهي المهنة الّتي ترمز إلى التزامهم ورغبتهم بالعودة إلى أوطانهم ولكن منذ عام ١٩١٠م بدأت مرحلة الاستقرار الّتي اتسمت بهجرة المزيد من النساء وتكوين الأسر في الوطن الجديد وتحوّل الاستيطان المؤقت شيئًا فشيئًا إلى جاليات مستقلة تمارس الأعمال المتنوعة. وانتقل أكثر من المغتربين تدريجيا إلى صفوف الطبقة الوسطى وبدأوا يندمجون في الحياة الأمريكية ويؤسسون أماكن العبادة الخاصة لهم والصحف العربية والجمعيات والنوادي الأدبية والتعليمة.

وقد جاءت في جريدة نيويورك ديلي تريبون عام ١٨٩٢م بأن الجالية السورية المهاجرة في نيورك هي مستعمرة زاهية لمخازن السلع العربية السورية وباعة بالجملة

وباعة جوالين ومقاه ومطاعم وجمعيات وصحف تصدر باللغة العربية.

أما هجرة اللبنانيين والسوريين إلى البلدان الأخرى فهي كندا ودول أمريكا الجنوبية، وبخاصة البرازيل والأرجنتين وشيلي وفنزويلا والمكسيك. ونقلوا هؤلاء المهاجرون لغتهم وأدبهم العربي إلى تلك المهاجر البعيدة. وأسباب المهاجرة إلى أمريكا الجنوبية تشبه المهاجرة إلى أمريكا الشمالية. فقد كانت الهجرة في البداية أفرادية ثمّ لم يلبث حتى أن أصبحت جماعية تنموا بصورة متزايدة حتى وصلت إلى الآلاف في بعض السنين. ويظهر أنّ طلائع الهجرة إلى أمريكا الجنوبية جاءت متأخرة عن مثيلتها إلى أمريكا الشمالية بعقدين من الزمن، أي أنّها انطلقت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ومن أوائل المهاجرين الّذين نسمع عنهم رفاق الثائر اللبناني يوسف كرم، الّذين رافقوه إلى منفاه في ايطالية ثمّ غادروها بعد وفاته متوجهين إلى البرازيل بعد عام ١٨٧٠م. أما أوائل المغتربين إلى الأرجنتين فقد جاؤوها من منطقة القلمون منذ عام ١٨٨٢م ثمّ هاجر إليها مالك منعم من بلدة يبرود عام ١٨٩٠م ولحق به العشرات من أفراد أسرته. غير أن اعداد المهاجرين إلى البرازيل ازدادت بعد توقيع معاهدة المهاجرة بين الحكومتين العثمانية والبرازيلية عام ١٩٠٦م في أعقاب زيارة إمبراطور البرازيل (الدون بيدرو الثاني) إلى فلسطين وسورية ولبنان.

لقد عانى المهاجرون الأوائل صعوبات مختلفة تتمثّل في اختلاف اللغة والعادات والتقاليد ولكنهم تمكنوا من التغلب على العرقلات ورسخوا مكانتهم في بلدان الاغتراب وفي مجتمعاتهم الجديدة حتى بدأوا يشاركون في مجالات الحياة المختلفة. وهكذا أخذ كارلوس منعم منصب الرئاسة في الأرجنتين وجميل معوض في الاكوا دور. وعمل بعضهم الآخر مناصب وزارية واصبحوا حكام ولايات ورؤساء بلديات وأعضاء في مجالس الشيوخ والنواب وأساتذة في الجامعات ومديري مصارف وشركات ومعامل كبيرة.

ساهم المهاجرون مساهمة بعيد المدى في التجارة والصناعة حتى اصبحوا من الركائز القوية الاقتصادية في بلدان أمريكا الجنوبية. كما أن الجاليات اتجه نحو التعليم الفني والمهني بحيث أصبح منهم المهندسون والأطباء والمحامون والكتاب والمدرسون ومنهم من تفوق في بعض المجالات العلمية وأصبح يتمتع بشهرة كبيرة.

ولم يقتصر المهجريون في نشاطهم على المجالات التجارية فحسب بل دخلوا أيضًا ميادين الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية فأسسوا النوادي والجمعيات وأصدروا الصحف والمجلات باللغة العربية ولغة البلاد نفسها.

أصدر المغتربون العرب منذ سنواتهم الأولى الصحف والمجلات ليعبّروا عن مشاعرهم ويتواصلوا فيما بينهم ومع بلدانهم. كان رواق معرّي أوّل رابطة أدبية أنشئت في سان باولو وتبعتها "جمعية الخريجين" كما أنشئت "العصبة الأندلسية" عام ١٩٣٣م الّتي شملت كبار الأدباء والشعراء ومن أشهرهم الشاعر القروي والياس فرحات وشفيق المعلوف ورياض المعلوف وسواهم والّتي ظلت تصدر مجلتها الشهيرة طوال عقدين إلى ان احتجبت عام ١٩٥٤م.

أما البواعث وراء هجرة اللبنانيين والسوريين فهي كثيرة ومنهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. الضيق الاقتصادي هو السبب البارز للهجرة لأنّ الفقر والحرمان ما نفع في مداوتها جهد ولا نشاط، فالفلاح الّذي لا يعرف قدره اللحم إلاّ مرة واحدة في السنة وغرفته المظلمة تضيق بالزوج والأطفال والبهائم يسمع الأخبار عن بلاد بعيدة تؤمن الحريات وتوفرّ الخيرات تنتابه رعشة تسرى في مفاصلة وتجعله كالمحموم يهدي لكلمة الهجرة.(٦)

يشرح توفيق ضعون أحد المهاجرين بواعث الهجرة فيقول إنّ الّذين غادروا سوريا نزحوا عنها من الفقر والجور، وقد أموا هذه البلاد وسواها، أي أمريكا، لكي يجمعوا ما يمكنهم بعضه من العيش بهناءة ويحقق لهم البعض الآخر نصيبا من العدل والحرية(٧). ويقول أحمد قبش بأنّه كانت

الهجرة هربا من جور الأتراك وطلبا للرزق[٨]. ويقول سليمان عيسى "إنّ من يجوع ويذلّ ينسى كلّ شئ، ويترك وراءه كل شئ ... غير مبال إلاّ بالبحث عن لقمته"[٩]. ويقول أحد المهاجرين عبد المسيح حداد ما كانت أسباب الهجرة طائفية بل كانت اقتصادية. [١٠]

وكانت مراكز الارساليات الأمريكية في لبنان أكثر من غيره من أجزاء سورية فان عددا كبيرا من المهاجرين كان من اللبنانيين. وبسبب الارساليات انتشرت الثقافة الأمريكية وبالتالي جعلت أهل السورية يميلون إلى الحضارة العربية. وكذلك رغب السوريون في عرض سلعهم وتحفهم الفنية في معرضي شيكاغو وفيلاديلفيا كما ذكرت في بداية المقالة.

ودافع آخر هو ضيق مساحة الأرض وكثرة السكان واستئثار الاقطاعيين بالأراضي الزراعية وبؤس الفلاح وانتشار الفقر دفعهم إلى انتجاع الرزق في بلدان أخرى. وكذلك كان للأضطهاد الديني والفتن الطائفية الّتي أثارها الاستعمار من التضييق على الأقليات أثر كبير في المهاجرة إلى بلاد تخلو من هذا التعصب ومن تلك الفتن.[١١]

والسبب الآخر هو الهروب من الالتحاق بخدمة الجيش التركي حيث اشتغل الشباب ليكون كبش الفداء للدفاع عن صفوف الجيش التركي ضد دول الغرب والمعادين للسلطنة التركية.

اغلاق باب التوظف كاب سبب مهم لأنه جعل اللبانيون يؤثرون المهاجرة على البقاء في قراهم حتى يستطيعوا تحقيق آمالهم وتتفتح الحياة أمامهم وينعمون بها، فهم براعم نامية تريد أن تؤتي ثمارها وقتا من الحياة حظها، ولن يكون ذلك إلاّ في اطمئنانهم إلى مستقبلهم الوظيفي. [١٢]

وشقّ قناة السويس عام ١٨٦٩م قد حوّل طريق التجارة بين الغرب والشرق من هذا البلد، كما أخذت صناعة الحرير الّتي كانت من أهم صناعات في البلاد آنذاك تضعف بسبب المنافسة الشديدة الّتي بات الحرير اللبناني يلقاها في الأسواق الفرنسية من الحرير الياباني الّذي شرع يتدفّق عن

طريق قناة السويس. [١٣]

وكذلك جعلت وسائل النقل البحري الجديدة السفر أكثر ميسورا وأقلّ كلفة كما كان من قبل، شجعت السكان على المهاجرة[١٤]. وكانت أخبار هجرات الأوروبيين إلى أمريكا تصل إلى لبنان فشجعت أبناء السورية على المغامرات ولاكتساب ثروات مساعدة أنفسهم وعائلاتهم المحتاجة كما تقول دكتورة نادرة سرّاج عن دور الصحف الّتي لعبت في تلك الحقيقة من الزمان في تشجيع اللبنانيين والسوريين على الهجرة. [١٥]

وتحت هذه الظروف السياسية والاقتصادية والتشجيعية نزح اللبنانييون والسوريون إلى الولايات المتحدة المريكية الشمالية والجنوبية في نشدان الحرية. وأهم سبب للمهاجرة كان سوء الحالة السياسية الّتي أثرت على جميع مظاهر الحياة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا وما إلى ذلك.

المراجع والحواشي:

١. محمّد مصطفى هدارة: التجديد في شعر المهجر، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٥٧، ص: ٣٠
٢. سمير بدوان قطامي: الياس فرحات، دار المعارف بمصر ١٩٧١، ص: ٥٨
٣. جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية، معهد الدراسات العربية العالية – ١٩٥٦م، ص: ٣
٤. نفس المرجع والصحفة نفسها.
٥. جوزيف الهاشم: المفيد في الأدب العربي، الجزء الثاني، المكتب التجاري وللطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦٤م، ص: ١٣٣
٦. جورج صيدح: أدبناء وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص: ٢٣
٧. محمّد مصطفى هدارة: التجديد في شعر المهجر، ص: ٣٣
٨. أحمد قبش: تاريخ الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٧١م، ص: ٢٨٣
٩. سليمان عيسى وزملاءه: الأدب العربي الحديث، الجزء الثالث، المطبعة التعاونية بدمشق، ١٩٧٠، ص: ٣٠٧
١٠. عبد المسيح حداد: انطباعات مغترب في سورية، دار اليقظة العربية، دمشق ١٩٦٢، ص: ٢٠٣

١١. عبد الرحيم محمود زلط: العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص: ٧
١٢. محمّد مصطفى هدارة: التجديد في الشعر المهجر، ص: ٣٢
١٣. سليم الحص: الهجرة من لبنان، تاريخها وأسبابها، مقالة ظهرت في مجلة "الأبحاث" تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت، آزار ١٩٥٩م، ص: ٦٨
١٤. نفس المرجع، ص: ٦٩
١٥. نادرة سرّاج: شعراء الرابطة القلمية، دار المعارف بمصر ١٩٥٦م، ص: ٤٤

مواقف أدبية في كتب البيروني

الدكتور شادحسين•

كان أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني ثمرة يانعة للحضارة العربية المنفتحة للعلوم والفنون وكانت الدراسات البينية من ظاهرة ذلك العصر. استفاد البيروني بهذه الظاهر فكان عبقريا ذا طموحات عالية، فلم يكد "يفارق يده القلم، وعينه النظر وقلبه الفكر"(١). وقد كان نسيح وحده وفاق الاقران في أنواع العلوم والمعارف مثل الرياضيات، والهيئة، والطبيعات،والطب، وعلم النجوم، والتاريخ وجغرافيا والمنطق، والفلسفة وعلم الأديان. فله مصنفات في شتى العلوم فمهارته في العلوم المختلفة اعطت فكره نسقا طريفا فلا غرو أن يعدّه المستشرق الالماني دكتور إدوار سخاو "اكبر عقلية ظهرت في التاريخ"(٢). فكان ينسق داخل رؤيته الفكرية المعارف المختلفة من علوم الطبيعية إلى العلوم الميتافيزية. وأمّا مشاركته في العلوم الأدبية فليست بغريب لأنها كانت ظاهرة العصر فقد قرض الشعر الفلاسفة والعلماء ورجال الدين على السواء فهدف هذه المقالة ابراز شخصية البيروني الأدبية وتحديد خصائص أدبه. ولم يكن البيروني عربيا غير أنه تثقف بثقافة عربية رفيعة. آثر البيروني هذه اللغة على اللغات الأخرى بل أحبها حبًا جما حتى قال "الهجو بالعربية أحب إلى منالمدح بالفارسية"(٣).

فقد كانت اللغة العربية قد اكتسبت مكانة لغة مشتركة للتفاهم بين الأمم كما أنه كانت حركة الترجمة لعلوم الأمم المتجاورة إلى العربية تزحف زحفًا فاستفاد البيروني بهذا الموروث الحضاري وقد كان محبا للعلوم مكبًّا عليها حتى أواخر حياته. لم يكتف على الكتب المترجمة فقد اتقن اللغات الإيرانية والسريانية والسنسكريتية للأطلاع

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

على مصادر المعرفة مباشرا. وكان له أيضًا المساهمة المتحمّسة في حركة الترجمة فقد ترجم بعض الكتب من السنسكريتية إلى العربية كما ترجم بعضها الآخر من العربية الى السنسكرية. ويروي أنه ترجم بعض الأساطير والقصص الى العربية أو الفارسية أو عاد صياغتها الّتي لم تحفظها التاريخ لسوء الحظ. أو لعل هذا الانشغال بالترجمة أعطى أسلوبه مسحا جذابا الّذي سنتصداه فيما بعد.

من أهم أسباب شغفه بالأدب العربي أن اللغة العربية كانت لغة الحضارة السائدة آنذاك كما أن معاصروه من العلماء ساهموا في النشاطات الأدبية وكان الملوك والأمراء الّذين عامل معهم، من محبي اللغة العربية وآدابها. فكان الملك محمود الغزنوي يؤثر العلماء العربية وكان يقرض الشعر في لغته الأم. وقد صاحبه البيروني ثلاث عشرة مرة في غزواته الهندية. كما رغب به قابوس بن وشكمير الذي كان أديبا تاما ومن كبار الكتاب في عصره[٤] وكما كان أبو الفتح البستي يكرم به وكان من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه. ربما شجّعه هذه المصاحبه في انشغاله بالأدب فيقرّ البيروني بصنيعة الحكام في ترفه حاله في قصيدة له للبستي[٥]:

مضى أكثر الأيّام في ظل نعمة على رُتب فيها علوت كراسيا
فآل عراق قد غذوني بدرّهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا
وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي على نفرة مني وقد كان قاسيا
وأولاد مامون و منهم عليهم تبدّي بصنع صار للحال آسيا

يفيدناالفهرس الّذي عدّه الياقوت الحموي عن كتب البيروني بأنّه كان غزير الانتاج في الأدب والنقد فله دراسات عن أصول الكلمات العربية وله تعلقيات على قصائد أبي تمام كما له منتخبات أدبية تحت عنوان "مختار الأشعار والآثار". تسلّط هذه التعليقات والمنتخبات الضوء على ذوقه الأدبي وحساسته النقدية . وكتاباه "التعلل باحالة الوهم في معاني نظم أولى الفضل" و "كتاب الدستورفي أحاسن المحاسن" تدلاّن على المامه بدقائق اللغة . غير أنّ هذه الكتب لم يحفظ عليها الزمن فضاعت وثيقة مهمة عن ذوقه الأدبي وحاسته النقدية. اللهم إلاّ أن آثاره العلمية وبعض آثاره

الشعرية المحفوظة تقدّم أمامتا بريقا أخّاذا عن أسلوبه في الأدب. يمكن أن ندرس مواقفه الأدبية تحت عنوانين: البيروني كشاعر والبيروني كأديب ناثر.

البيروني كشاعر:

لم يكن البيروني شاعرًا كبيرًا فالشعر يستوجب الطبيعة العاطفية، وأما هو فقد كان مشغولا بمباحث عقلية. وعلى كل حال كان شاعر دون كبار الشعراء فيقول ياقوت الحموي عن شعره "ان لم يكن في الطبقة العليا فإنّه من مثله حسن"(٦) ولعله كان ملمًّا بحظ وافر من شعر العربي فكتبه تدل على تذوّقه الشعري فهي تحوي شواهد شعرية كثيرة لشعراء العرب. فعلى سبيل المثال يقول محمّد أجمل أيوب الإصلاحي تعليقا على كتاب الجماهر "كتاب الجماهر حافل بروائع الشعر الّذي لا يختص بعصر دون عصر ولا طبقة دون طبقة" (٧)فيمكن أن ندرس شاعرية البيروني تحت عنوانين: تذوقه الشعري وشعره. وأما تذوقه الشعري فهناك شواهد شعرية منتشرة في كتبه وقد أسدى هذا التذوق فوائد كثيرة للثقافة العربية فقد قام بحافظة الثروة الشعرية فيقول محمّد اجمل ايوب الإصلاحي بصدده "وتتضاعف أهيمة الكتاب إذا عرفت أنه يحتوي على كثير من الأبيات التي لا نعثر عليها في الدواوين المطبوعة. فيجب على من يصنع ديوانا لشاعر من شعراء العصر الجاهلي أو القرون الأربعة الأولى للهجرة أن ينظر في كتاب الجماهر عسى أن يجد ما يسدبه ثغرا"(٨). أما شعره الّذي قرضه بنفسه فلم يحفظ منه إلاّ بعض القصائد أو بعض المقتطفات المنتشرة في الكتب فهذه الأشعار تدل على أن نظم الشعر في أصناف المدح والهجاء والفخر والحماسة والحكمة فعلى سبيل المثال يقول في الحكمة(٩):

ومن حام حول المجد غير مجاهد ثوى طاعما للمكرمات وكاسيا
وبات قرير العين في ظل راحة ولكنه عن حلة المجد عاريا

ويقول في الغزل ويعبر عن أساه على فراق حبيبه(١٠).

تنغض بالتباعد طيب عيشى فلا شئ أمرّ من الفراق
كتابك إذ هو الفرج المرجّى أطبّ لما ألمّ من ألّف راق

ويقول في مدح قوم[١١]:

فأنتم الناس لا ابغى بكم بدلا وأنتم الرأس والإنسان بالرأسي
وكدكم لمعال تنهضون بها وغيركم طاعم مسترجع كاسي

ومن معالم البيروني في أسلوب الشعر استخدامه المحسنات البديعية كعادة أكثر الشعراء في عصره فعلى سبيل المثال هناك جناس بين الكلمات المجد والمجاهد وبين الفرج والمرجي وبين الناس والرأس في الأشعار متقدمة.

وهناك اشعارًا أخرى الّتي تدلّ على ايثاره الحق والصدق على الباطل والكذب فقد مدحه شاعرفقطن بتملّقه فردّه ساخرا:

يا شاعرًا جاءني يخرى على الأدب واني ليمدحني والذم من أدبي
وذاكرا في قوافي شعره حسبي ولست والله حقًّا عارفًا نسبي
إذ لست اعرف جدّي حق معرفة وكيف أعرف جدي إذ جهلت أبي

وقد حُفظ له قصيدة قد أخذها ياقوت الحموي من الكتاب سر السُّرور للقاضي أبو قاسم النيشافوري. وهذه القصيدة قطفة من السيرة الذاتية ولم يبق منها إلاّ سبعة عشر بيتا وربما هي أوّل تجربة في الشعر العربي. والطراز فيه كطراز ملحمة "شاهنامه فردوسي" فكأن البيروني قد تأثر بأسلوب شاهنامه في سرد الحوادث. غير أن البيروني لا يفارق منهج شعراء العربية في وحدة القافية. فيقول عن مصاحبته محمود الغزنوي والمشاكل الّتي عاناها بعد وفاته[١٢]:

ولم ينقبص محمود عني بنعمة فأغنى واقني مغضبا عن مكاسيا
عفا عن جهالاتي وأبدي تكرّما وطرّي بجاه رونقي ولباسيا
ولما مضوا واعتضت منهم عصابة دعوا بالتناسي فاعتنمت التناسيا
فأبدلت أقواما وليسوا كمثلهم معاذ إلهي ان يكونوا سواسيا

ثمّ يذكر مكاسبه كما يذكر ثناء أهل الهندية له:

فسائل بمقداري هنودًا بمشرق وبالغرب من قد قاس قدر عماسيا
فلم يثنهم عن شكر جهدي نفاسة بل اعترفوا طُرّا وعافوا انتكاسيا

البيروني أديبا:

إذا أقوم تقدير البيروني أديبا عربيا أتذكر قول جرين لا (Greenlaw) النقاد الانكليزي إن الكتب الكيرة (الكلاسيكية) من الأدب. إن مرد هذا القول إلى أن كتب الكلاسيكية تحوي في طياتها موادًا أقرب إلىالأدب دون العلوم البحتة فمحتوها تكتظ عادة بمواقف أدبية

وعاطفية. فإذا نقوم أعمال البيروني في العلوم الإجتماعية نطمئن أن عددا ملحوظامنكتبه أجدر أن يعدّ من الكتب الادبية لأن التعبير فيها أدبي. ومن الحقائق المعلومة أن البيروني كان لديه ذوقا أدبيا رفيعًا فله النظر الدقيق في أمّهات الكتب العربية من الشعر والنثر كما يتبيّن بتتبع آثاره وله ميل طريف في العثور على آثار آداب اللّغات الأخرى من اليونانية والسريانية البهلوية والسنسكرتية فقد ساهم في حركة الترجمة. كما كان له شغف كبير في تحقيق أصول الكلمات وتدقيق أساطير الأقوام فله دراسات قيمة في هذا الصدد وله أيضا دراسات في مقارنة الثقافات. وربما ساعدت هذه التعاملات في تنمية ذوقه الأدبي وتزيين أسلوبه. ويمكن أن نقسم مساهمته في النثر تحت عنوانين:

١. الأدب الخاص
٢. الأدب العام

أدب الخاص:

كانت شخصية البيروني متشعبة النواحي فلم يكن من الذين يؤثرون العلم على الفن ولا بعكس ذلك. فقد كان ظاهرة العصر أن عظماء العلماء في مجالات العلوم الطبيعية أو الفلسفة أو الرياضيات قد قرضوا الشعر وساهموا في النشاطات الثقافية والأدبية أيضا والأمثلة كثيرة فقد كان ابن سينا الفلسفي والعالم في العلوم الطبيعية كاتب قصص وقارض شعر أيضا. وقد عاصر البيروني ابن سينا فراسلوا فيما بينهما في الأمور العلمية[١٣] فلا غرو أن البيروني أيضا رغب في الأمور الأدبية. ونظرًا إلى مهارته في سرد حوادث وقصص الأقوام البائدة في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية، وحذقه في نقل الجانب الثقافي الهند مع كل الأساطير والخرافات في كتابه في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لا نستبعد تماما هذه القول المروي أنه رغب في أساطير الأقوام ونقلها أو اعاد صياغتها. فقد ذكرفي قائمة كتبه ست روايات طويلة ولا تعرف بالضبط عن لغتها هل كتبها بالعربية أو الفارسية؟[١٤]

ولكن إذا نعتبر إيثاره اللغة العربية لكتابة أهم آثاره لكونها

لغة الحضارة السائدة آنذاك نرى أنه كتب بعضها على الأقل باللغة العربية. ولم تبق هذه القصص موجودة لسوء الحظ إلاّ أن كتب الآخرين سجلت فقرات منها. ومن هذه القصص مغامرة "فامغ وعزرا" أسطورة من اصل يوناني وقد استغلها شعراء الفارسية في قصصهم. ومن أهم هذه القصص قصة"أرماسديارو مهريار"،أعاد صياغتها البيروني وهي حكاية تمثالين بوذيين لرجل وامرأة في سفح جبل باميان بالقرب من (بلخ) شمالي أفغانستان. ولم يزل التمثالان موجودين حتى الزمن القريب إذا قام "حركة الطالبان" بهدمهما ظنا منهم أن الدين الإسلامي لا يسمح بوجودهما. وهذه القصة مثل قصتين آخرتين من أصل هندوسي. وربما كان البيروني يهتم بثقافة الهند أكثر من الغير والمهم اهتمام البيروني بالأسطورة فالأساطير لها أهمية بالغة في فهم نفسية الأمم وبُعدهم الفكري والثقافي.

وينتمي إلى هذا القسم ايضا ترويحاته في مستهل كتابه الجماهر في معرفة الجواهر. فهي أيضا أجدر أن تعد من نوع النثر الفني فهي خمس وعشرين ترويحة وقد عالج المؤلف فيها الموضوعات المختلفة حول الاجتماع والاقتصاد والأخلاق ومصالح الشريعة. والترويحات أكثرها بالغة الأهمية من ناحية الفن والمحتوي. فيتوهم القارئ بعض الأحيان عند قرأتها أنه يقرأ مقالة حديثة في استقصاء الموضوع وتحليلها. وأمّا أسلوبه فيها فهو متصف بالبلاغة وسحر البيان ورشاقة التعبير.

فمن أهم محاسن أسلوبه استقصاء الموضوع من جوانب مختلفة فمثلاً في الترويحة العاشرة يعالج مظهرًا من مظاهر النظافة وهو التطيب بالروائح الأرجة فهو يوفق بين الحدود المختلفة للمرؤة من اجتناب المحارم وكف الأذى، ومن الإرادة لغير ما يريدالنفس وألا يعمل سراً ما يستحي منه في العلن[١٥]، فمثل هذه المحامد يجب أن يتمّها المرء بالتطيّب الذي حبّب إلى رسول لله صلى الله عليه وسلم. ومن محاسن أسلوبه في معالجة الموضوع التزامه طريقة المقابلة فإنّما تعرف الأشياء بأضدادها،كما أنّه يقوم بتبديد درجات الأشياء في النفع والضر. فهو يستطيع أن ينسق داخل رؤيته الفكرية

الصور المختلفة للوصول إلى النتائج الحاسمة عن الموضوع المتناول للتحليل. فعلى سبيل المثال يشرح المروءة والفتوة فيقول:"على الرجل في نفسه وذويه وحاله والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره"[١٦]، وعلى هذا المنوال يفرق بين لذة العاقل ولذة الغبي الغافل فيقول:

"إنما يلذ العاقل لذة نفسانية إذا لا حظها (أيّ الأمور النفسانية الباقية) بعين البصيرة والاعتبار كما يلذ الغافل لذة جثمانية في الأصطباح، والاغتباق والتقلب بين الخمر والخمار لما لم يبق له ولأمثالهإلاّ مدة يسيرة"[١٧].

وناحية أخرى في ترويحاته الاستطراد وهذا الاستطراد يوجد أيضا في موضوعاته العلمية في كتاب الجماهير وربما تأثر بأسلوب الجاحظ في كتاب الحيوان فقد نقل منه في هذا الكتاب[١٨]. اللهم إلاّ إن هذا الاستطراد لا يلاحقه في كتبه العلمية الأخرى. فالأحرى أن يقال أن كتاب الجماهر أقرب إلى الأدب من كتبه الأخرى. فهو يجمع فيه بين نزعة عقلية جادة وفكهة معا ولعل هذا أيضا من تأثير الأديب العملاق الجاحظ.

من صفات الأدب السامي أنه يفيدنا في تنمية شخصينا كما أنه يعطى اللذة الفنية. وقد فاز البيروني من كلتا الناحتين فالترويحات عصارة تجارب الحياة الشاغلة بأنواع العلوم والمعارف وهي في صياغة أدبية ممتعة.

عالج البيروني في ترويحاته بعض القضايا الميتافيزيائية وبعض الأمور التي تتصل بعلم الاجتماع، ومن المدهش حقاأنّ ابن خلدون أيضا تناول بعض الأمور التي عالجهاالبيروني فكأنما ابن خلدون سار على خطواته وقام بتطوير هذه العلوم حتى أصبح أيقونة عالمية والفضل يرجع إلى البيروني.

أدب العالم:

كان البيروني متضلعا من العلوم العقلية والنقلية فلم يكتف بما حوته الثقافة العربية الخصبة في تلك الآونه بل تعداها إلى ثقافات الأمم الأخرى فأصبح نسيجا من علوم متشعبه بعقليته المفتوحة ونفسيته الطامحة فتضلع من العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ

والطب والفلسفة وعلم الأديان والمنطق وفقه اللغة ،واعطت هذه المعارف كتاباته صبغة خاصة، وبالإضافة إلى هذا أتقن اللغات العديدة مثل الأيرانية والسنسكرتية والسريانية فتطلع إلى الموروث الثقافات الخصبة فلم يكتف بالإطلاع بل قام بترجمة هذا الموروث فأصبح كاتبا متمرسا في التعبير عن أنواع المعرفة ،ولم تكن مشاغلة العلمية أن تكون عرقلة في جنوحه إلي الأدب بل اعطت هذه المعارف أدبه طرازا خاصا حتى أصبح نسيج وحده في عصره. ومن أهم الكتب يجدر أن نعدّها من أدب العام هي"الآثار الباقية عن القرون الخالية" و"كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرزولة ومقالتان في "كتاب الجماهر" حول الجواهر والفلزات وكتابه عن إقليمه من خوازم ورسائله في الفلسفة والمنطق.

كثيرًا ما تحتاز في هذه الكتب بعبارات ذات طبيعة أدبية فعلى سبيل المثال لنراجع إلى قوله في طبقات المجتمع الهندي في المتقبس التالي من كتابه تحقيق ما للهند.

"كل أمر صدر عن مستهتر طبعًا بالسياسة، مستحق بفضله وقوته للرئاسة، ثابت الرأي والعزيمة، مُعان بدولة في الأخلاف بتركهم الخلاف بالأسلاف فقد تأكد ذلك الأمر عند مأمور به تأكد الجبال الرواسي وبقي فيهم مطاعًا في الأعقاب على كرور الأيام ومرور الأحقاب، ثمّ إن استند ذلك إلى جانب من جوانب ملّة فقد توافي فيه التوأمان وكمل الأمر باجتماع الملك والدين وليس وراء الكمال غاية تقصد، وقد كان الملوك القدماء المعنّيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس طبقات ومراتب بحفظها عن التمازح والتهارج"[١٩]).

فيستخدم المؤلف أدوات جمال الأسلوب استخداما كما يترشح من استخدامه أدوات الجناس والطباق في هذه العبارة. فيهتمّ البيروني بالشكل والمضمون في عباراته اهتمامًا بالغاً، فحين يعالج موضوع تطبّق المجتمع الهندي يذكر منهج أكاسرة الفرس في إحداث الطبقات في المجتمع لفؤائدهم السياسية وهذا على طريقة المقارنه.

وأمّا كتابه الجماهير فالتزم فيه أسلوب الجاحظ فكأن كتاب

البيروني امتداد لكتب الجاحظ في استطرداده والحاقه فنون المعارف. فيستهل موضوعاته عادة بآية كريمة إن وجدت حول الموضوع ثمّ يذكر أسماء الجواهر في اللغات الأخرى ثمّ يأتي بأسماءها وصفاتها عند اللغويين والجوهريين ويعرض أقوالهم بنقده ثمّ يذكر خواص الجواهر وأنواعها وينقل الأخبار والأساطير ويخوض في الأشعار وأمور البلاغة وكل ماله صلة بالموضوع. فالمواقف الادبية في الأبحاث تكثر حتى تصبغ الكتاب بصبغة أدبية. وقد قام محمد أجمل ايوب الإصلاحي بمعالجة مواقف أدبية ولغوية في الكتاب فقدّرها بقوله"... فجاء كتابا ممتعا خفيفا، غزير المادة سهل المأخذ، يقبل عليه العالم والأديب والشاعر و اللغوي والأخباري بنفس اللذة و الشوق والعناية"(٢٠).

وربما يكون تعبيره الأدبي أظهر في كتاباته عن تاريخ الملل فينم كتابه"الآثار الباقية" عن ميله الأدبي.وهذا الكتاب مهم لأحتوائه على قدر كبيرمن المعلومات حول تاريخ الأديان والملل فضلا عن احتوائه على التقويم عن الأمم القديمة، ومما يجدر بذكره هو تأكيد المؤلف علي المنهج المقارن في الدراسات فيطبّقه في دراسته للتواريخ التي تستخدمها الأمم المختلفة.أما أسلوب الكتاب فهو مثل أسلوبه في معالجة الموضوعات الثقافية متّسم بسمات أدبية فيري "أن الكتاب يمتاز بسلاسة الأسلوب ورقته، فقد استخدم البيروني عبارات سهلة شديدة الوضوح، كما أنّه كان دقيقا وحذرا في اختيار ألفاظه "(٢١) واعتقد الإقتباس التالي المؤجز عن ذوالقرنين يصدّق هذا الرأي أنّه"كان رجلا صالحاشديدا قد اعطاه الله من السلطان والقدرة أمرا عظيما ومكّنه من مقاصده في المشارق والمغارب من فتح المدن وتدويخ البلاد و تذليل العباد و جمع الملك يدا واحدة و دخول الظلم في الشمال بالإجماع ومشاهدة أقاص العمران"(٢٢). ويذكر أحمد سعيد الدمرداش مؤلفه حول إقليمه من خوارزم فيعدّه من "مؤلفاته الأدبية البالغة الأهمية"(٢٣).

والموجو أن هذا العرض المتواضع يلقى ضوءًا وافيا على الجانب الأدبي في كتابات البيروني فقد كان شاعرًا وناقدًا وأدبيا من

الطراز الأوّل وتكمن قيمة عمله في سعة مجال معارفه وقد جال في انحاء العالم مع حيوية عقليته واستعلاء طموحاته واستوعب أساليب الأدباء والكتاب في اللغات المختلفة وأحرز التجارب وأسكبها في صيغة عربية طريفة.

الحواشي:

١. معجم الأدباء (طبعة دار المأمون) ١٧، ص: ١٨١،.
٢. نقلا عن الكتاب "البيروني" لأحمد سعيد الد مرداش(دار المعارف، القاهرة) ، ص: ٨
٣. كتاب الصيدلة (تحقيق محمد سعيد احسان الهي) ،كراتشي (١٩٧٣)، ص: ١٢
٤. تاريخ الأدب العربي، جزء ٥، شوقي ضيف(دار المعارف، القاهرة)
٥. معجم الأدباء (١٧)، ص: ١٨٧
٦. نفس المصدر (١٧)، ص: ١٨٦-١٩٠
٧. مواقف أدبية ولغوية في كتاب الجماهر لأبي الريحان البيروني، محمد اجمل أيوب الإصلاحي، ص: ١٠١
٨. نفس المصدر، ص: ١٠٣
٩. البيروني، ص: ٤٠
١٠. نفس المصدر، ص: ٤٠

١١. نفس المصدر، ص: ٤٠
١٢. معجم الأدباء ١٧، ص: ١٨٧٠١٨٨
١٣. اعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الاساسية والتطبيقية،م٢، (مكتبةالأسد، دمشق١٩٩٥)، ص:٦٣
١٤. البيروني، ص:
١٥. كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ابو الريحان البيروني (دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد، الهند، ١٣٥٥هـ)، ص:٢٢-٢٣
١٦. نفس المصدر، ص: ١٠
١٧. نفس المصدر، ص: ١٢-١٣
١٨. مواقف أدبية ولغوية في كتاب الجماهير، ص: ٨٤
١٩. كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في الفصل ومرزولة ص: ٧٥، مطبعة دائر المعارف العثمانية، بحيدر آباد ١٩٥٨م.
٢٠. مواقف أدبية ولغوية في كتاب الجماهير، ص: ٨٤
٢١. آثار الباقية عن البيروني،أشرف صالح محمد سعيد، ص:٢٠(دار النشر الألكتروني،القاهرة،٢٠٠٧م)،
٢٢. آثار الباقية، ص: ٣٦
٢٣. البيروني، ص: ٣٧

السيّد جمال الدين الأفغاني

داعية التضامن الاسلامي و النهضة العربية

طارق أحمد آهنغر•

كان القرن التاسع عشر قرن سيطرة بريطانيا وكانت سيطرتها هذه ممتدة من قارة آسيا الي أفريقيا ويقال "إنّ شمس بريطانيا لا تغرب" و في الحقيقة أنها كانت تمتلك القوة العسكرية مع قوتها العلمية والفكرية فلم يستطع أحد مقاومتها وكانت ترزخ تحت سيطرتها كثير من بلاد العالم ولاسيّما البلاد الاسلامية التي لها تاريخ عريق وثقافة عظيمة غير أنها ضعفت أمام هذا الاستبداد البريطاني وأفلست حياة سكّانها افلاسا بسبب ضعف عزمهم وبحثهم عن منافعهم الشخصية مع فساد أمرائهم ، فأصبحوا فريسة للعقدة النفسية المحطّمة وانسحبوا من معركة الحياة واستسلموا للكسل و الانحلال والشعور الزائف بالماضي، وهي كلها التي جعلت هيكل مجتمعها ضعيفا واهنا. وكان أقبح داء مجتمعها هو "التخلّف التعليمي". فقد كانوا يكرهون التعليم الحديث ويرفضون أن يسايرو الزمان والحياة المتطوّرة. وما زالوا يعتنقون أساليب الحياة القديمة ويتمسكون بالتقاليد والأوضاع العنيفة، فنما فيهم اليأس والقنوط.

قيل "إن أحلك الظلام هي ساعة الأخيرة من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات" و في هذه الظروف المتوترة قام رجل من أفغان بتخطيط استراتيجية تختلف تماما عن طريقة المقاومة فقد تفكرّ في استغلال الفرص المتوترة لإصلاح مجتمعه، وكان يري أن لا يمكن إصلاح الحكومة الا باصلاح الشعب، و يسأل: ماذا ينفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالحة ؟. و كان فيلسوفا، ومصلحا، وثائرا، وأحد كبار رجال الفكر والسياسة و أحد الأعلام

• الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير، سرينغر.

البارزين للفكر الإسلامي بالنسبة الى التجديد ومن أعظم دعاة الوحدة الإسلامية في العصر الحديث ، و رائدا من رواد النهضة المصرية. و لم يكن هذا الرجل غير السيد جمال الدين الأفغاني.

مولده ونشأته:

ولد محمّد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأفغاني عام ١٨٣٩م[١]، في أسعد آباد إحدى مدن بلاد الأفغان [٢] ، ووالده السيد صفتر الحسينية، و ينتهي نسبه الى السيد علي الترمزي المحدث الشهير ثم يرتقي إلى عمر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الافغانى[٣]. كانت منزلة أسرته عالية في بلاد الأفغان، لنسبها الشريف، ولمقامها الاجتماعي والسياسي إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية، فحكمت فيه إلى أن نزع الإمارة منها دوست محمد خان أمير الأفغان وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل، وانتقل إليها والده مع ولده الأفغاني، وهو الثامنة في عمره، فعني أبوه بتربيته وتعليمه، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء في بلاده حيث قضى الأفغاني السنين الأولى من طفولته وشبابه في أفغانستان، فدرس فيها العربية، وعلوم الشريعة. حفظ القرآن في العاشرة من عمره، ثم درس العلوم العقلية والتاريخ[٤] إضافة إلى اللغة الأفغانية والفارسية، كما تلقى علوم الدين، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، فأستوفى حظه من هذه العلوم، على أيدي أساتذة من أهل تلك البلاد على الطريقة المألوفة في الكتّاب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه وهو في المراهقة من عمره، ثم سافر إلى الهند، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية وتعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الرياضية فنضج فكره، واتسعت مداركه وكان بطبعه شغوفاً إلى الرحلات والاستطلاع على أحوال الأمم، فأراد وهو في الهند أن يؤدي فريضة الحج، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة ينتقل في البلاد، ويتعرف أحوالها، وعادات أهلها، حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٨٥٧ م وأدى الفريضة.[٥]

نشاطاته العملية:

ثم عاد إلى بلاد الأفغان، وانتظم في خدمة الحكومة

علـى عهـد الأميـر دوسـت محمـد خـان المتقـدم ذكـره وكـان أول عمـل لـه مرافقتـه إيـاه فـي حملـة حربيـة جردهـا لفـتح هـراة، إحـدى مـدن الأفغـان، ولـيس يخفـى علـى أحـد أن النشـأة الحربيـة تعـوّد صـاحبها الشـجاعة، واقتحـام المخـاطر، ومـن هنـا تبـدو صـفة مـن الصـفات العاليـة، التـي امتـاز بهـا جمـال الـدين، وهـي الشـجاعة، فـإن مـن يخـوض غمـار القتـال فـي بـدء حياتـه تـألف نفسـه الجـرأة والإقدام، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعاً.

سـار الأفغـاني إذن فـي جـيش دوسـت محمـد خـان لفـتح "هـراة"، ولازمـه مـدة الحصـار إلـى أن تـوفي الأميـر، وفتحـت المدينـة بعـد حصـار طويـل، وتقلـد الإمـارة مـن بعـده ولـى عهـده شير علي خان سنة ١٨٦٤م.

ثم وقع الخلاف بين الأمير الجديد وإخوته، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السيد جمال الدين إلى محمد أعظم أحد الأخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير. استعرت نار الحرب الداخلية، فكانت الغلبة لمحمد أعظم، وانتهت إليه إمارة الأفغان، فعظمت منزلة الأفغاني عنده، وأحله محل الوزير الأول، و بحسن تدبيره استتب الأمر للأمير، ولكن الحرب الداخلية، ما لبثت أن تجددت، إذ كان شير علي لا يزال يسعى لاسترجاع سلطته، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم، فأيدوه ونصروه، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم، وأغدق شيرعلي الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم، فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات، كما يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم، وغلبه شير علي، وخلص له الملك.

بقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الأمير بسوء، احتراماً لعشيرته وخوف انتفاضة العامة عليه حمية لآل البيت النبوي، وهنا أيضاً تبدو مكانة الأفغاني، ومنزلته بين قومه، وهو في المرحلة الأولى من حياته العامة، ويتجلى استعداده للإضطلاع بعظائم المهمات، والتطلع إلى جلائل الأعمال، و مع ذلك رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان لأن شيرعلي نسج المؤامرات ضده من حين الى آخر.[٦]

رحلته إلى الهند:

لم ينفك الأمير شيرعلي يدبر المكايد للسيد جمال الدين، ويحتال للغدر به فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان، ليجد جواً صالحاً للعمل، فاستأذنه للحج، فأذن له، فقصد إلى الهند سنة ١٨٦٩م ، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار لما عرف عنه من العلم والحكمة، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عدوانه لسياستها، وما يحدثه مجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج في النفوس، خاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة ١٨٥٧م (حرب الاستقلال الأولى)، فلما "وصل الهند من أجل إصلاح حال الامة الإسلامية وكانت بحكم مجاورتها للهند المحتلة من قبل الاستعمار البريطاني تتعرض لهجة استعمارية أقوى مما يتعرض له أي بلد اسلامي آخر،"[٧] "ورحبت به حكومتها الانكليزية وأكرمته ولكنها فرضت عليها حصارا، ويحول بينه وبين لقاء العلماء وجماهير المسلمين"[٨]. ولكنها تعلم أن أهل العلم والفضل ليهرعون إليه، و يقتبسون من نور علمه وحكمته، ويستمعون إلى أحاديثه وما فيها من اغذية العقل والروح، والحث على الأنفة وعزة النفس، فمنعت الحكومة الاتصال به، ولم تأذن له بالاجتماع مع العلماء ورجال السياسة وغيرهم من مريديه، وكان الافغاني كما وصفه احمد أمين: "انه محرر العقول ومحرك القلوب، ومزلزل العروش ومن كانت السلاطين تفار من عظمته وتخشى من لسانه وسطوته والدول ذات البنود تخاف من حركته، والممالك الواسعة الحريّة تضيق نفسا بحريته"[٩]. فلم يقم هناك طويلاً، ثم أنزلته الحكومة بإحدى سفنها إلى السويس.

وصوله الى مصر:

نزل في مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠م ، وأقام بها أربعين يوماً، لأنه لم يكن يقصد الإقامة بها طويلا، لأنه جاء إلى مصر ليسافر منها إلى بلاد الحجاز فلما سمع الناس خبر قدومه، اتجهت إليه أنظار النابهين من أهل العلم، وحينما زار الأزهر الشريف اتصل به كثير من الطلبة، فآنسوا فيه روحاً تفيض معرفة وحكمة، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية، والفلسفية، والكلامية، وقرأ لهم شرح "الأظهار" في البيت الذي نزل به بخان

الخليلي، " وكان نشاطه العلمي ذا شعبتين: دروس علمية منظمة يلقيها في بيته في (خان الخليلي)) ، و دروس عملية يلقاها بين زوار بيته و في بيوت العظماء حين يريد زيارتهم ، و في ((قهوة البوسته)) بالقرب من ((العتبة الخضراء)) و حيثما كان في المجتمعات[١٠] و كان يحضر في حلقات درسه علماء الأزهر و غيرها أمثال الشيخ محمد عبده ، و الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ ابراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول ، والشيخ ابراهيم الهلباوي. ثم تحول عزمه عن الحجاز، ثم سافر إلى الآستانة.

سفره إلى الآستانة و العودة منها:

وصل جمال الدين إلى الآستانة، فلقي من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكراماً، إذ عرف له الصدر الأعظم عالى باشا مكانته، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ الذين يعرفون أقدار الرجال، فأقبل على الأفغاني يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضواً في مجلس المعارف، فاحتمل مسؤوليته، وأشار بإصلاح مناهج التعليم، ولكن آراءه لم تلق تأييداً من زملائه، ولم يكن على وفاق مع شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، وفي ديسمبر سنة ١٨٧٠م، رغب إليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات، فاعتذر بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى الأفغاني خطابه بدار الفنون في جمع حاشد من ذوي العلم والمكانة، فنال استحسانهم، لكن حدث بينه وبين شيخ الإسلام خلاف، فأمرته حكومة الآستانة بالرحيل عن الآستانة ببضعة أشهر، حتى يهدأ الاضطراب ثم يعود إليها إن شاء، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها مرة أخرى

عودته إلى مصر:

عاد السيد جمال الدين إلى مصر في مارس سنة ١٨٧١م[١١] ولم يكن ينوي الإقامة بها، بل كان قاصد الى مشاهدة مناظرها،

واستطلاع أحوالها، و كان رياض باشا، وزير إسماعيل ذلك الحين يود إقامته في مصر، وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قرش كل شهر، توجه إليه كثير من طلبة العلم ينهلون من ينبوع عرفانه، ويقتبسون الحكمة من بحر علمه، فقرأ لهم الكتب العالية في فنون الكلام، والحكمة النظرية، من طبيعية وعقلية، وعلوم الفلك، والتصوف، وأصول الفقة، بأسلوب طريف، وكانت طريقة تدريسه مبتكرة تختلف تماما عن الطرق التقليدية "وكان يحدد موضوع الدرس فقط من الكتاب، ثم يفيض في شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه ، و بعد ذلك يقرأ نص الكتاب فاذا هو واضح ظاهر بيّن فيه موضع الخطأ والصواب[١٢]. وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوسهم، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب والإنشاء والخطابة وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية فظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكارالتي أنتجت أطيب الثمار في ما بعد. وصل الافغاني مصر حينما كانت الطبقة العليا من العلماء والمثقفين تتطلع الى رائد ثائر ومصلح مجيد. وهنا موضع للتساؤل، أي دافع دفع 'الخديوي إسماعيل" ان يجلب الأفغاني للإقامة في مصر، وإكرام مثواه، ويبدو هذا العمل غريباً، لأن جمال الدين كان سياسياً ومجموعة أخلاق ومبادئ ولاترغب فيه الملوك المستبدون لينال عطفهم ورعايتهم، ولكن في حقيقة الأمر كان لإسماعيل جانب ممدوح من صفاته الحسنة وهو حبه للعلم، ورغبته في نشره ورعايته، وكانت شخصية جمال الدين علمية، واشتهر بفلسفة توحيد الأمة الاسلامية و نهضة المصرية العلمية و الثقافية في ذلك الحين، فلا غرابة أن يكرم إسماعيل العالم المحقق مثله الذي يفيض على مصر من بحر علمه وفضله، وفي الحق أن إسماعيل لم يكن يقصر في اغتنام الفرصة لتنشيط النهضة العلمية ورعاية العلماء والأدباء، فرغّبته شخصية جمال الدين العلمية أن يبقى بمصر لتنشأ تحت أثره معاهد العلم وأهمل شخصيته السياسية و موقفه السياسي إهمالا تاما ضد سيطرة الانجليز و آرائه السياسية وكراهيته للاستبداد ونزعته الحرة. فلم يكن إسماعيل يخشى آرائه أو يحسب لها حساباً كبيراً، لأنه في ذلك الحين سنة ١٨٧١م كان قد بلغ أوج سلطته

ومجده، فكان يحكم البلاد حكماً مطلقاً، يأمر وينهى ويتصرف في أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب. وقد بدأت النهضة التي ظهرت على يد السيد، علمية و أدبية، ولم تتطور إلى الناحية السياسية إلا حوالي سنة ١٨٧٦م، على أنها في تطورها السياسي لم تتجه ضد إسماعيل بالذات، بل اتجهت في الجملة ضد التدخل الأجنبي. ، ومهما يكن واقع الأمر فإن فضل المشاركة في عمل السيد كان له الأثر البالغ في نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية.

دعوته الاصلاحية و أثرها في مصر

أقام السيد في مصر، وأخذ يبث تعاليمه في نفوس تلاميذه، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة في مصر خطوات واسعة، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم، و بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم."فأتي جمال الدين فسخّر الأدب في خدمة الشعب ، يطالب بحقوقه ، و يدفع الظلم عنه ويهاجم من اعتدى عليه كائنا من كان، يبين للناس سوء حالهم و موضع بؤسهم، و يبصّرهم بمن كان سبب فقرهم ، و يحرضهم أن يخرجوا من الظلمات الي النور، وألا يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته إلا بهم، ولا غناه إلا منهم، وأن يلحّوا في طلب حقوقهم المغصوبة، وسعادتهم المسلوبة، فخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، وينشد الحرية و يخلع العبودية ويفيض في حقوق الناس و واجبات الحاكم، ويجعل من الأديب مشرفا على الأمراء لا سائلا يمد يده للأغنياء و هذه نعمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد.(١٣)

فدور جمال الدين كان له الأثر البالغ في نهضة العلوم والآداب في مصر، ولا يفوتنا القول بأن البيئة كانت مستعدة للرقي صالحة لغرس بذور هذه النهضة، وظهور ثمارها، أو بعبارة أخرى أن مصر بما فيها جامع الأزهر، والمعاهد العلمية الحديثة، والتقدم العلمي الذي ابتدأ منذ عهد محمد علي، و كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغاني، ووجدت أثره فيها أقوى وأعظم منه في أي بلد من البلدان الأخرى، وفي هذا ما يدلك على مبلغ استعداد مصر

للنهضة والتقدم، ولذا سبقت الأقطار الشرقية في التقدم العلمي والفكري والسياسي، فخلف جمال الدين الأفغاني جماعة من تلاميذه من العلماء والحكماء والمثقفين أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم و سعد الزغلول الذين حملوا لواء النهضة المصري، كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية، وإقبال الناس عليها، وتحدثهم في شؤون البلاد العامة، وتبرمهم بحالتها السياسية والمالية، ثم ظهور روح المعارضة واليقظة فيها ضد الاستبداد و التدخل الاجنبي. وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩م حكومة يرأسها الخديوي توفيق باشا قد نسبت إليه السعي في الأرض بالفساد، واتهمته كذبا بأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا، وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية.(١٤)

نفي جمال الدين من مصرالي الهند وأقام بحيدر أباد الدكن، وهناك كتب رسالته في الرد على الدهريين، وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء في الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية غير أنها لقيت بالفشل.

جريدة "العروة الوثقى" ترجمان النهضة والتضامن الاسلامي

أخفقت الثورة العرابية، واحتل الإنجليز مصر، فسمحوا للأفغاني بالذهاب إلي اي بلاد يريدها فاختار الذهاب إلى أوروبا في سنة ١٨٨٣، وأول مدينة نزل بها مدينة لندن، وأقام بها أياماً معدودات، ثم انتقل إلي باريس، وكان تلميذه محمد عبده منفياً في بيروت عقب إخماد الثورة، فاستدعاه إلى باريس، فوافاه إليها، وهناك أصدر جريدة "العروة الوثقى" (١٥) وقد سميت باسم الجمعية التي أنشأتها، وهي جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجاهدة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامي وكبرائه وهي التي عهدت إلى الأفغاني بإصدار الجريدة لتكون لسان حالها. اشتركا معاً في تحريرها، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين، وقلم محمد عبده، فجاءت آيات بينات لسمو المعاني وقوة الروح وبلاغة العبارة وهي أشبه ما تكون بالخطب النارية التي تستثير الشجاعة في نفوس قارئيها، واتخذت العروة شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية، والمدافعة عن حقوق الشرقيين

كافة، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي والجهاد ضده. " لم يكن معركة الأفغاني ضد الاستعمار الأوربي محصورة في وطن ولكن ساحة ممتدة لتشمل كل وطن الشرق ، و لذلك اهتم الأفغاني كثيرا بمفهوم الأمة الإسلامية ، حتى أن أحد أهدافه الكبرى كان بعثه من جديد إلى الحياة من أجل مواجهة الحكام المستبدين بالامة، واستثارة المسلمين من الهند الى الجزائر من أجل الوقوف صفا واحدا في وجه الاستعمار الغربي [١٦].

وقد ذاع شأنها في العالم الإسلامي وأقبل عليها الناس في مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت في مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، وبلغ بها السعي في مصادرتها أن أوعزت إلي الحكومة المصرية بتغريم كل من توجد عنده العروة الوثقى خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً، وأقامت الموانع دون استمرارها، فلم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر عدداً[١٧]. قضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات لم يزل خلالها ينشر المباحث والمقالات الهامة في مقاومة اعتداء الدول الأوربية على الأمم الإسلامية، ويراسل تلاميذه في مصر. ثم تنقل في البلاد الأوربية إلى أن استقدمه ناصر الدين شاه إلى طهران وجعله وزير الحربية فلم تطل مدته في تلك الوزارة فسافر إلى روسية ورحل إلى باريس وشاهد معرضها سنة ١٨٨٩ وعاد إلى إيران بإغراء الشاه فعني بإصلاح أمورها. فخاف أرباب الدولة من تطرفه فأبعد مريضاً إلى حدود تركيا وسكن مدة مدينة البصرة إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة سنة ١٨٩٢ وأسكنه في بعض قصورها فبقي فيها مكرماً إلى سنة وفاته بداء السرطان في ٩ آذار سنة ١٨٩٧. [١٨]

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧م، وما أن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقياً عنده، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال في مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش فدفن كما يدفن اقل الناس شأنا في تركيا، تم نقل جثمانه من تركيا في عام ١٩٤٤ في موكب إسلامي مهيب إلى بلده أفغانستان، حيث دفن في مدينة كابل ويقع ضريحه حاليا في وسط جامعة كابل.

مرت معظم حياة الشيخ في الرحلات و سافر من بلد الى آخر

داعيا الي الوعي الاسلامي و الوحدة الاسلامية كما بذر بذور الثورة ضد الاستبداد حيث نزل كما أشار الى ذلك أحمد أمين: "ليس من المبالغة القول إن حياة هذا الإمام الكبير أشبه بالأساطير فقد تنقل من بلد إلى بلد، وفي كل موضع حل به أثار المعارك العاصفة فبقى غبارها وآثارها عند لحظة نفسه أو ترحيله من هذا البلد إلى ذلك فترك في كل وطن جذوة من النار والثورة مشتعلة في وجه الفساد والظلم والطغيان وليس من المبالغة أيضًا أن شخصية جمال الدين الأفغاني هي أكثر شخصيات العالم الإسلامي الحديث إثارة ومدعاة للدهشة".(١٩)

خاتمة

كما ذكرنا سابقا أن السيد جمال الدين أفغاني قام بتوحيد الأمة الإسلامية ضد السياسة الغربية الاستعمارية وحضارتها الزائفة بأفكاره القيمة السليمة وبدأ ينفخ روح النهضة الإسلامية في البلاد الإسلامية الممتدة من الهند إلى المغرب الأقصى.وكان منهجه في الإصلاح الديني بسيط و هو الدعوة إلى القرآن الكريم والتبشير به ، وكان يرى أن القاعدة الأساسية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هي الاعتماد على القرآن الكريم، و يعتقد أن القرآن من أكبر الوسائل في لفت نظر الإفرنج إلى حسن الإسلام، فهو يدعوهم بلسان حاله إليه. فالقرآن وحده سبب الهداية وأساس الإصلاح، والسبيل إلى نهضة الأمة؛ ومن مزايا القران أن العرب قبل إنزال القران في طيهم كانوا في حالة همجية لا توصف، فلم يمض قرن ونصف قرن حتى ملكوا زمام العالم، وفاقوا أمم الأرض سياسة وصناعة وتجارة. فالشيخ لم يزل يدعو الأمة الاسلامية الي الوحدة القائمة على دعائم العلم والمعرفة و القوة السياسية والاقتصادية ضد الاستعمارين و الحكام الظالمين فزلزل عروش الاستعمارين والحكام المستبدين الّذين استولوا على العروش ظلما واجبارا حتى يخشوا من لسانه ومن أفكاره وخافوا أن تشيع أفكاره وعمليته الاصلاحية التي تجمع الأمة الإسلامية على كلمة واحدة رغم خلاقاتها السلوكية والفقهية فتقوم الأمة بوحدتها ضد الذين يعرضون ثروة بلادهم لخدمة البريطانية وأمريكا والقوات اليهودية سريّا وإعلانا. فاخفقوا أصوات الشعب بكل قوة وسلطة لأنهم يرون أن أفكاره القيمة ودعوته الاصلاحية تضع

يدها على مركز النهضة والتقدم وتسوقها إلى مكانة عليا. واحظرو عليها حظرا شديدا وصرفوا مليار دولار على أن ينشؤوا المدارس الفكرية والمعاهد البحثية وعينوا الباحثين المستشرقين وعملاءهم من علماء الشرق الّذين بذلوا جل جهودهم لتشويه شخصية السيد جمال الدين أفغاني واتهموه بالإلحاد والزندقة وماسونة وغيرها كما قسموا شخصيته بين الأفغان وإيران وبين الشيعة والسنة ليكن شخصيه مشكوكة ومتنازعة في الامة حتى تنطفئ نار الثورة ضد الحكام الظالمين و المستبدين. ولكنهم لم ينجحو ولن ينجحو أبدا.

الحواشي

١) أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب، بيروت،ص:٥٩
٢) رضا رشيد، تاريخ الأستاذ، الجزء الأول ، القاهرة ٢٠٠٣، ص: ٢٧
٣) جواد مصطفى ، اصول التاريخ والادب، ط: ١، ص٨٧
٤) رضا رشيد، تاريخ الأستاذ، الجزء الأول، القاهرة ٢٠٠٣، ص: ٢٨
٥) أختر، ماه جبين: مساهمة الشيخ محمد عبده في الأدب العربي، ط: ١، حيدر آباد الهند، ٢٠٠٤ ص:٣٠
٦) نفس المرجع: ص:٣١
٧) إبراهيم ، مفيدة محمد: عصر النهضة بين الحقيقة والوهم، دار مجدلاوي للنشر، عمان ١٤١٩ه/ ١٩٩٩م ، ص: ١٨٣
٨) نفس المرجع، ص: ١٨٣
٩) أحمد، صلاح زكي: اعلام النهضة العربية الاسلامية في العصر الحديث،القاهرة ٢٠٠١ ص:٣٥
١٠) أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب، بيروت،ص:٦٤
١١) الجندي، عبد الحليم: الإمام محمد عبده، ط:٢، دار المعارف، القاهرة، مصر ١٩٨٧،ص:١٥
١٢) أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب، بيروت، ص:٦٤
١٣) نفس المرجع، ص: ٦٥
١٤) العقاد، عباس محمود، التراتجم و السير ط: ١، دار المعارف، مصر، ١٩٩٢م، ص:١٠١
١٥) نفس المرجع، ص: ١٠٥

١٦) أحمد، صلاح زكي: اعلام النهضة العربية الاسلامية في العصر الحديث،القاهرة ٢٠٠١ ص:٤٠
١٧) العقاد، عباس محمود، التراتجم و السير ط: ١، دار المعارف، مصر، ١٩٩٢م، ص:١٠٥
١٨) شيخو، لويس: تاريخ الآداب العربية، ص: ٢٨٨
١٩) أمين، أحمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب ، بيروت،ص:٣٦

نشأة الكتابة وتطوّرها في اللغة العربية

غلام مصطفى مير•

بدأت الكتابة بعد مجئ الإسلام وإن توجد قبله في العصر الجاهلي ولكن على نطاق ضيّق لم يكونوا أهل كتابة ومع هذا لم تكن تلك التكابة نادرة أيضا كما أنهم يكتبون بينهم العقود والمواثيق، ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال وأن الشعراء كانوا يدوّنون أشعارهم أيضا. يذكر شوقي ضيف بهذا الصدد:

> "وإذا فالعرب استخدم الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنّية".(١)

عرف العرب في العصر الجاهلي الكتابة ولكنهم لم يتركوا خلفهم ما نعرف بها عن أحوالهم التاريخية الأدبية غير أنهم نقشوا وكتبوا الوثائق التجارية والسياسية؛ لأننا لا نرى لديهم الرغبة والشغف في تدوين تاريخهم الأدبية يمكن أن قلة وسائل الكتابة لم تتسنّ لهم هذا. وإلاّ يمكن الإنكار عن حياتهم الأدبية، بل أدبهم فكان أرقى الآداب في أيامهم ولا يزال الأدب الجاهلي إلى اليوم أبرع النماذج الأدبية.

جاء الإسلام وشجّع رسول الله عليه السلام الكتابة وأخذت الكتابة تروج في العصر الإسلامي بهذا تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم وشاهدنا أن الرسول صلي الله عليه وسلم جعل فداء بعض أسارى قريش في بدر ممّن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة وكذلك خصّ القرآن الكريم على اتخاذ الكتابة في المعاملات كما قال جلّ شأنه:

> يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ

• الباحث في الدكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر.

فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ. (البقرة: ٢٨٢)

وبعد ذلك شاعت الكتابة في العرب إطاعة لأمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وظهرت جماعة من الكتابة تخصصوا بكتابة الوحي، أمثال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وغيرهم من أجلّة الصحابة. وعني الصحابة بكتابة الوحي عناية واسعة كما أنهم عنوا بها في كثير من شئون المسلمين حتى لنرى النبي عليه السلام يكتب كثيرا من العهود والأمان ومن المعاهدات كما كان عليه السلام يكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام وتبعه بعده الخلفاء الراشدون على هذا النمط يكاتبون ويعقدون من تعاهدات، ولكن لم تزد الكتابة على ذلك في هذا العصر حتى نرى في العصر الأموي أن كثرت الرواية وأدت هذه الرواية أهل العصر إلى التدوين. حقا وقد وضع الإسلام بالأسس لحركة علمية وتاريخيه وأخذت هذه الحركة العلمية تتسع في العصر الأموي على التدريج حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى الثروات الأدب العربي. ولدينا معلوم إنّ كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم والمعرفة إذا القرآن الكريم كان من أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة.

احتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى سبب نزولها والمكان الّذي نزلت والحوادث الّتي تشير اليها تلك الآيات ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي ومناقشات وتحقيق. وقد أكثر القرآن من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه، فرغب العلماء في فهم هذه الإشارات وتوضيحها واستفادوا لمعرفتها ممن شرّفهم الله بنعمة الإسلام من اليهود والنصارى: أمثال كعب بن الأحبار ووهب بن منبه اللذان يذكران للمسلمين قصص التوراة والإنجيل ويشرحانها لهم وفق حاجتهم واستطاع المسلمون أن يستخدموا تلك الأخبار المشهورة بالإسرائيليات وتفسير الآي القرآن والتاريخ ولا تزال آثار تلك الإسرائيليات باقية في كتب التاريخ والتفسير الّتي وصلت إلى أيدينا.

والحديث النبوي الشريف أيضًا من عوامل تدوين التاريخ، إذ عني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن الكريم ويستنبطوا منها أحكام الّذين ويعرفوا بها حياة النبي المباركة عليه السلام وحياة

الصحابة. فصارت تلك أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد.

ووقع احتكاك العرب بالأعاجم بعد الفتوح وانتشار الإسلام إلى بلاد هؤلاء الأعاجم. وكانوا يفخرون على العرب بتاريخ آباءهم وحضارتهم ويروون لهم مما أقاموا بها آباءهم من المآثر والأعمال الجبارة في الماضي. والعرب إن كانوا حديث عهد بالحضارة ولكنهم ليسوا أقل مجدا ومكانة. فتوجهوا إلى ابتكار تاريخ لهم يسطيعون به الوقوف تجاه هذا الفخر الأجنبي. فأصبح هذا أيضًا سببا لتدوين تاريخهم وكذلك دعت حاجة في نظام الحكم الاسلامي خاصة في النظام المالي إلى التدوين التاريخي. لأن الضرائب على البلدان الّتي دخل المسلمون فيها فاتحين تتباين حسب فتحها صلحًا أو عنوة أو بعهد.

وكلما مضى المجتمع العربي في العصر اتسعت التاثرات بما لدى الأجانب. كان العرب ناشرين للدين الاسلامي، اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعًا أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرّب في أثنائها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شعب الفكر اليوناني في الفسلفة والمنطق. وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العلمية وعاشوا في القصور وقام الأجانب - أكثرهم الفرس – على خدمتهم وتهيئة حياتهم المادية واطّلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس. أن الكتابة نمت في العصر الأموي نموّا واسعًا. فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات وقد ألّفوا فعلا كتبا كثيرة، بعضها ديني خالص يتّصل بمسائل الفقه والتشريح الاسلامي ونرى المحدثين طوال القرن الأوّل للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم، منهم من يكتفي برواية الحديث ومنهم من يدوّنه حتى إذا وصلنا إلى رأس المئة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدوينًا عامًا والأوّل ممن بادروا إلى جمع الحديث ابن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ. فكتب المؤرخون في مغازي الرسول عليه السلام وعلى رأسهم أبان بن عثمان[٢]. وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتهمّون بتاريخ وطنهم وفي مقدمتهم عبيد بن شريه الجرهمي اليماني الّذي كان يفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان. يُذكر أنه دوّن لمعاوية بن أبي سفيان الأخبار

الّتي يحدّث له بها في الليل وألّف وهب بن منبه في الأخبار وكذلك محمّد بن عبد الرحمن العامري ألّف في الفقه وكما ذكرت من قبل ألّف محمّد بن مسلم الزهري في الحديث النبوي الشريفه. وكذلك نرى أن بدأ النقل من العلوم الأجنبية في هذا العصر الأموي أيضًا ولكن مع هذا كله لم يصل إلينا شئ مما ألّف في هذا العصر غير أننا نعلم عدة من أسماء الكتب فقط.

المؤرخ عمر فروخ يكتب بهذا الصدد:

"اتسعت الرواية في العصر الأموي، فقد روى القرآء القرآن الكريم بقراءاته وتفسيره. وروى المحدّثون حديث رسول الله عليه السلام عن أهل الجيل الّذين سبقوهم. وكذلك روى علماء اللغة والأمثال والنحو والأدب والتاريخ والّذي يبدو بيّنا من كتاب الفهرست لابن النديم أن التدوين كان معروفا وأنه أصبح في العصر الأموي مألوفًا، فقد أشار معاوية بن أبي سفيان على عبيد بن شريه بأن يدوّن الأخبار الّتي كان يحدُثه بها.

ولقد عرف العصر الأموي تدوينا بمعنى التأليف منسوبا إلى وهب بن منبه (المتوفي ١١٤هـ) في الأخبار وإلى محمّد بن عبد الرحمن العامري (المتوفي ١٢٩هـ) في الفقة وإلى محمّد بن مسلم الزهري (المتوفي ١٢٤هـ) في الحديث، ولكن لم يصل إلينا شئ من تدوين ذلك العصر ولا مما يجب أن يكون قد ألّف فيه من الكتب".[٣]

وذكر أحمد حسن الزيات عن أبي الأسود الدولي المتوفي سنة ٦٩هـ (أول من وضع مبادئ النحو عند البعض) أنه استأذن من زياد بن أبيه والي العراق أن يضع للعربية بعض القواعد النحوية لتصون من اللحن لأنه رأي أن العرب قد خالطت الأعاجم ففسدت ألسنتهم فأذن له الأمير ووضع أبو الأسود باب التعجب ثمّ باب الفاعل والمفعول. وأخذ كلما سمع لجنة وضع القاعدة الّتي تصلها. وأنقل مما كتب أحمد حسن الزيات في تدوين أهل ا لعصر الأموي بعد ذكر عن أبي الأسود الدولي. يكتب: "وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال

مجهولة" وأيضًا يكتب:

"لم تكن نفوس العرب مهيّأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة وتشعبت عليهم الأقضية وضعوا النحو لضبط القرآن والتفسير لحل مشكلة والفقه لاستنباط الأحكام منه ودوّنوا الحديث خوفا من ضياعه أو افتعاله. واقتضت حنكة معاوية وحكمة الخلفاء أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضيين وأخبارهم. فألّف عبيد بن شريه "كتاب الملوك وأخبار الماضيين المعاوية وربما كتب غيره غيره ولكن شيئا من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تعن أحدًا في هذا العصر. اللهم إلاّ خالد بن الوليد حفيد معاوية. فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك. استقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئا منها.

وجملة القول في هذا العصر كان فيه نضج الآداب الجاهلية ونشؤ العلوم الإسلامية وبداية النقل من العلوم الأجنبية".(٤)

ويقول شوقي ضيف أيضًا في التأليف والتدوين في العصر الأموي:

"رأينا الكتابة في العصر الأموي تعالج موضوعات علمية وتاريخية، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ، وحقًّا مرّ بنا أنه طبع لعبيد بن شريه كتاب في أخبار اليمن كما طبع لوهبه بن منبه كتابه "التيجان في ملوك حمير" ولكن الكتابين جميعًا مشكوك في صحّة نسبتهما إليها". (٥)

ويمكننا أن نقول بعد مشاهدة هذه الأراء أن نشأت العلوم وبدأ أشغال التأليف وبدأ النقل من علوم الأجانب في العصر الأموي ولكن

لم يصل إلينا ويمكن أن ضاعت بأيدي الزمان ولا نطّلع على عدة أسماء الكتب فقط كما لاحظنا فيما نقلت أعلاه عن المؤرخين ويمكننا أيضًا أن نقتنع بأن آداب العرب كانت قائمة على الرواية يتناقلها الناس من طريق اللسان، لأن العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظًا وأتمّهم لها. وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي ونرى فيهم الاخذ والتحمل. ونقل مصطفى صادق الرافعي في كتاب "تاريخ آداب العرب" واقعة ابن عباس بهذاالصدد يكتب:

> "ولقد روى عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة نهيًا، وقال: إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة. وجاوءه رجل فقال: إني كتبت كتابا أريد أن أعرضه عليك، فلما عرضه عليه أخذ منه ومحاه بالماء. ولما سئل في ذلك قال: إنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم".(٦)

وقول العرب: "من حفظ حجة على من لا يحفظ" مشهور.

والغرض أن العرب في البداية ما كانوا يعتمدون في الغالب على التأليف والكتابة بل يعتقدون الكتابة عيبًا ونقصانا إن ثقتهم كانت بالحفظ وفخرهم عليه. وما عنوا بهذه الكتابة إلاّ بعد احتكاكهم بالأمم الأجنبية كما ذكره شوقي ضيف في مؤلفته "الفن ومذاهبه في النثر العربي" يقول:

> "ولعلّ من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت في ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان. فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلاّ بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجي. وكذلك كان الشأن عند العرب فإنهم لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلاّ بعد طروبهم مع الأمم الأجنبية وفتوحهم...."(٧)

كما أني ذكرت غير هذا الموضع أن العرب مالوا إلى كتابة تاريخ آباءهم بعد الاحتكاك بالأعاجم ليستطيعوا به الوقوف تجاه الفخر الأجنبي بما أقام به آباء هؤلاء الأجانب من المأثر ومن الأعمال الفخمة في الماضي.

بعد العصر الأموي بزغت شمس العصر العباسي وصارت

العربية هي لغة العالم الاسلامي كله في الكتابة العلمية والأدبية وتفتحت لهذه اللغة كنوز العلم والمعرفة وانتهت إليها روافد الثقافة من شتى أقطار الأرض. والعصر العباسي بلغ مبلغ الكمال في العمران والحضارة والفنون والآداب العربية ونقل العلوم الأجنبية وفنونها كما أنها استحكمت صلات اللغة العربية بلغات الأجانب الّتي بذرت بذورها في العصر الأموي وجعلت أفكار العرب وعقولهم وآدابهم تتأثر بهذا الاحتكاك كما تأثروا به في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وغير ذلك من السكن والمحافل ولا ريب في أن الأجانب أسهموا في ترقية ثقافة العرب وفنون آدابهم وحضارتهم وحكمهم أيضًا ونضج العقل العربي فوجد سبيلا إلى البحث ومجالا للتفكير. وبالجملة نال هذا العصر من الازدهار والرقى ما لم ينل من قبل ومن بعد. وكان التدوين بلا ريب في هذا العصر الذهبي المظهر الأدبي الّذي برز فيه بروزا عظيمًا فغلب التدوين وجعل الرواة والعلماء يكتبون ما يسمعونه وما يخطر في بالهم واتسع النقل وتدوين المنقول من الحكم وآداب السلوك وفنون العلم والفلسفة عن اللغة الفارسية والسريانية واليونانية والهندية. وظهرت في هذا العصر مؤلفات كثيرة تحوي على الفنون والعلوم المختلفة لا يسعها هذا المكان. وبجانب عن العلماء والأدباء بتأليف الكتب التي يخبرون فيها عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في اشعارهم وقبائلهم وأسماء آباءهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجاد من شعره وما سبق إليه المتقدمون رواية فأخذوه عنهم المتأخرون كتابة. فظهرت من أقلام المؤلفين كتب الطبقات والتراجم والمختارات وأخذوا يؤلفون في الشعر والشعراء والأدب والأدباء فأصبحت تلك الكتب أساسا ومصدرا لتأريخ الأدب العربي بعد مضى العصور أما كتب الطبقات فأشهرها طبقات أبي عبيدة الرواية (٢٠٩هـ) وطبقات محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) وطبقات محمد بن حبيب النحوي (٢٤٥هـ) وطبقات ابن قتيبة (٢٩٦هـ).

وطبقات ابن قتيبة هذه المعتمد عليها في هذا الباب. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري ولد سنة ٢١٣هـ وهو يعدّ أكبر مؤلّف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ. طبقاته من أهم الكتب

للشعراء ويعدّ مصدرًا أصيلاً ومرجعا هامًّا في بابه. لم يحرص المؤلّف في هذا الكتاب على استيفاء الشعراء وحصرهم وتقضي سيرهم بل اقتصر على المشاهير منهم، كما أنه قال في مقدمة الكتاب:

"وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب والذين يصح الاحتجاج بأشعارهم في الغريب".

وكان همّ ابن قتيبة الترجمة وجمع أخبار الشعراء واختيار طائفة من أشعارهم يسوقها تمثيلا أو بمناسباتها. والكتاب كثير الشعراء غزير النصوص تضمن ١٨٠ ترجمة بدأها بامرئ القيس وأطال القول يه لاستفاضة أخباره عندهم ولتقديمهم له على الشعراء. هذا الكتاب يعدّ كتابا في المختارات الشعرية وكتابا في النقد بالإضافة إلى كونه كتابا في تراجم الشعراء. طبع هذا الكتاب لأول مرة في مدينة ليدن سنة ١٧٨٥م.

ووضع ابن المنجم نديم المكتفى بالله (٣٠٠هـ) لأخبار شعراء مخضرمي الدولتين "كتاب الباهر" ابتدأ فيه ببشار بن برد ولكن لم يكمل عمله وأكمله ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين.[٨]

ووضع أبو الفرج الأصبهاني كتابه الشهير "الأغاني" وهو نادرة التب، جمع فيه أخبار ٤٩٦ شاعرا بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث وهو منقول عن كتب كثيرة وضعت قبل هذا الكتاب. لهذا الكتاب واحد وعشرون جزءًا. ولم يعمل في بابه مثله جمع هذا في خمسين سنة. وقال بعض المؤرخين:

"لولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية". ومن كتب التراجم أول ما وضع منها "كتاب البارع" في أخبار الشعراء المولدين لهارون بن علي المنجم البغدادي (٢٨٨هـ) جمع فيه ١٦١ شاعرا. افتتحه بذكر بشاربن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح. وهذا التكاب هو الأصل الّذي احتذاه من جاء بعده[٩]. ووضع عماد الدين الكاتب الأصفهاني في (٥٩٧هـ) كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" ترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠هـ إلى سنة ٥٧٢هـ ووضع أيضا كتاب "السيل على الذيل" جعله ذيلا للخريدة.

ووضع ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) كتاب "معجم الشعراء" وكتاب آخر "إرشاد الألبّاء في معرفة الأدباء" وهو المعروف بمعجم الأدباء. ثم وضع ابن خلكان كتابه "وفيات الأعيان" وعدّ فيه طائفة من الشعراء في كل عصر. وذيل عليه أقوام حتى وضع الكتبي "فوات الوفيات" ثم وضع صلاح الدين الصفدي كتابه "الوافي بالوقيات" انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠هـ جمع فيه أعيان كل فن وكذلك الكتب التي صنفها الأندلسيون وهي أبلغ ما كتب من نوعها. كالعقد الفريد لابن عبد ربه وهو أشهر شعراء الناصر (المتوفي سنة ٣٢٨هـ) وهو الّذي نظم بعض غزواته في أرجوزته المشهورة.

وجملة القول عمت الكتابة في العصر العباسي على النطاق الواسع التي شجّعها الإسلام وشجّعها النبي عليه السلام في عصره وظهرت مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون والأدب العربي ويستمرّ هذا الشأن حتى الآن.

ناهيك بأن نعلم ما ألّفت وصنّف في العصر العباسي وبعده من تراث الفكر العربي كانت متشتّة ومتفرقة في مكتبات العالم وخزائن الكتب ومع هذا أن كتب الطبقات والتراجم والمختارات التي أصبحت أساسا وموادًا لتاريخ الأدب العربي في العصر الجديد. تكتفي بعدّ أسماء الأدباء من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وبسرد أسماء المصنفات والمؤلفات في مختلف فروع العلوم والمعارف والآداب وأول من أراد حصر ما تشتّت واحصاء ما تفرق من تلك التراث العربي المستشرق كارل بروكلمان "ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والإعتزاز أو عدّة ومددا للبعث والإحياء أو يتطلّع أخيرا إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد وما أثير حوله من بحوث، وصُنّف من دراسات خطا العلم والأدب دفعتها إلى الأمام في الشرق والغرب". (١٠)

هذا من أهم الأبحاث يتطلب الوقت والمكان وأرجوه في المستقبل انشاء الله تعالى.

المراجع:

١. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ٢٠
٢. طبقات ابن سعد: المجلد الخامس، ص: ١١٢
٣. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأول ص: ٣٧٩
٤. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص:
٥. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١٠٥-١٠٦
٦. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، (الأول) ص: ١٨١
٧. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١٠٢
٨. الكتبي: فوات الوفيات، الجزء الثاني، ص: ٢١١
٩. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ص: ٢٢٦
١٠. الدكتور عبد الحليم النجار: مقمة تاريخ الأدب العربي، (ص: ط) لكارل بروكلمان

مشاكل تدريس اللغة العربية في كشمير وحلولها

بيرزاده بشير أحمد•

نشأت ديانات وثقافات متنوعة في أرض كشمير الخصبة منذ أقدم العصور كما ترعرعت في جوّها لغات مختلفة منها اللغة البراكرتية، واللغة السنسكرتية، واللغة الفارسية بالإضافة إلى اللهجات واللغات المحلية الإقليمية ومنها اللغة الكشميرية. أمّا اللغة العربية وعلومها وفنونها، فقد عرفها أهل كشمير منذ طلوع الإسلام وانتشاره في ربوعها في القرن الرابع عشر الميلادي.

وبعد دخول الإسلام في هذه البلاد فكان من الطبيعي أن يكون التركيز على تعليم اللغة العربية وترويجها حيث أنها لغة الدين الإسلامي ولغة مصادر الفكر الإسلامي – لغة القران الكريم ولغة الحديث النبوي – لكن اهتمام المسلمين الجدد بها كان أقلّ من اهتمامهم باللغة الفارسية. والسبب الرئيسي لهذه الظاهرة الموسفة هو أن دُعاة الإسلام الوافدين، والتجّار المسلمين، وأصحاب الحكومة المسلمة الناشئة، كلّهم كانوا من البلاد الأعجمية. وكانت الفارسية لغة الحوار ولغة الخطابة والكتابة لديهم. فأصبحت اللغة الفارسية اللغة الرسمية في عهد السلاطين ولكن لا يعني ذلك أن عامة المسلمين في كشمير كانوا يجهلون اللغة العربية اطلاقا بل أن تأدية الشعائر الإسلامية اتاحت لهم نصيبا من المعرفة بهذه اللغة المقّدسة. أمّا العلماء والفضلاء فقد كانوا متضلعين من اللغة العربية وعلومها وفنونها.

والوقع إن اللغة العربية بكونها لغة الدين الإسلامي لم تكن لغة المحادثة والحوار أو اللغة الرسمية في كشمير في أيّ وقت بل ظلت لغة الدين الإسلامي وثقافته طوال ستة القرون. قد دخل اللسان العربي أرجاء كشمير مع الدعاة المسلمين كما أشرنا سابقا وما زال ولا يزال مميزا بشعاره دينيا وثقافيا. لا ينازعه بالنظر إلى هذه المزية الباهرة لسان آخر، فاستمر المسلمون يهتمون به لكونه لسان القرآن العظيم ولسان الرسول محمد خاتم النبيين، فلا يتأتى العكوف على معالم الدين الحنيف بالمباشرة إلاّ بالوقوف على هذا اللسان، وبدراسة الجادة بيد أن الظروف في كشمير لم تسمح له

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

أن يتمتع بسلطان النفوذ تماما، فيترقي إلى مستوى التعليم المنهجي في المراحل المختلفة إذ كانت الفارسية على ما اشرنا إليه آنفا، تمتعت بتفوق مستمر في البيئة والبلاط الملكي والنظم الإدارية وحلقات الدروس. وما زال السبب الرئيسي في اهتمام الناس في كشمير بتعلّم اللغة العربية طوال القرون بعد انتشار الإسلام في أرجائها هو أن أغلبية السّكان هناك هم مسلمون ومن المعروف أن الدين الإسلامي واللغة العربية متلازمتان، لا ينتشر الدين الإسلامي إلاّ بها إذ هي لغة مكتوبة ذات ثقافة عريقة وأدب مزدهر. لهذه الأسباب أصبحت اللغة العربية لغة روحية للمسلمين جميع أنحاء العالم.

تعليم اللغة العربية في كشمير:

ومن الملاحظ أن جميع الجهود التي بذلت في تعليم اللغة العربية ونشرها في ربوع كشمير، أن كانت من قبل العلماء المسلمين عن طريق فتح المدارس والمعاهد الدينية التي تقوم بتدريس اللغة العربية في أوّل الأمر.تأسست هذه الكتاتيب والمدارس منذ بداية العهد الإسلامي في كشمير، ما زال تلعب دورا هاما في ترويج اللغة العربية وثقافتها خلال القرون الماضية.

ظلت كشمير تحت الحكم المغولي الزاهر حتى عام ١٧٥٣م ولكن بعد ذلك أصيبت بفوادح من الأمور وأزمات ونكبات، سواء في الحقل السياسي والديني والعلمي. وبعد أن توقف التيار العلمي والثقافي خلال فترة الاضطراب والحكم الشخصي، تجدّد بعد استقلال كشمير منه في عام ١٩٤٧م، فقام العلماء الكشامرة بإنشاء عديد من المدارس والمعاهد الدينية العربية، كما اهتمت الحكومة الشعبية بتدريس اللغة العربية وتعليمها في مدارسها وكلياتها بإنشاء تعليم هذه اللغة كمادة بين المواد الأخرى . أمّا تعليمها على المستوى الجامعي فبدأ متأخرًا في الثمانيات من القرن العشرين عند ما اعتمدتها جامعة كشمير في برامجها التعليمية وبدأ تدريسها على مستوى الماجستير.

الآن تدرس اللغة العرب في الكليات و الجامعات الكشميرية بالاضافة إلى االمدارس و المعاهد الإسلامية لأسباب متعددة، منها دينية و ثقافية و إجتماعية و إقتصادية. عدد الطلاب يزداد كلّ يوم و تحدوهم رغبة صادقة لتعلم القران حينا كما تحدوهم الظروف للاشتغال في البلاد العربية. نجد عددا كبيرا يريدون مهنة التدريس في المدارس الثانوية الحكومية و كما نجد المتفوقين يقبلون إلى الدراسات العليا تكون أمنيتهم أن يصبحوا أساتذة في الكليات و الجامعات الحكومية و المعاهد العليا من خلال هذه الأماني و العواطف.

إنّ تدريس اللغة العربية في كشمير الآن يجري على طريقتين:
الأوّل: طريقة المدارس والمعاهد الدينية العربية.
الثانية: طريقة المدارس والكليات والجامعات العصرية العلمانية.

المدارس و المعاهد الدينية:-

أمّا المدارس و المعاهد الدينية التقليدية فغرضها تثقيف الجيل الناشئ بالثقافة الاسلامية الصحيحة لكي لا يميل الشباب المسلم إلى الثقافة الغربية التي يزداد أثرها كل يوم مع ازدياد غزو ونفوذ الفكر الغربي والحضارة الغربية في فكرنا وحضارتنا من الجوانب ولكي لا ينحرف شبابنا عن الدين تحت هذا الأثر. وتسيرالدراسة في هذه المدارس الدينية عامة وفق النظام القديم، والهدف من دراسة اللغة العربية فيها هو فهم الدين والعلوم الاسلامية. فإنّ هذه المدارس تعلّم اللغة العربية والفنون المتعلقة بها كوسيلة تساعد في فهم العلوم الدينية لاكفاية منشودة. وذلك تكفى من تعلم اللغة العربية بالقدر الّذي ترى أنّها تساعد في فهم القرآن وغيره من الفنون الاسلامية العالية.

المعاهد التعليمية العصرية العلمانية:

يوجد في كشمير الآن عديد من الكليات وبعض الجامعات العصرية التي انشأتها الحكومة بعد الاستقلال الولاية من الحكم الشخصي وهذه الكليات والجامعات تخضع للمجلس الأعلى للجامعات في ممارسة نشاطها التعليمي والتربوي والتثقيفي. وأنّها تتولى تدريس اللغة العربية من مرحلة البكالوريوس إلى مرحلة الدكتوراة بصورة عامة. ففي مرحلة البكالوريوس يدرس الطالب اللغة العربية في الكلية حوالي ثلاث سنوات إذ اختار اللغة العربية كإحدى المواد الأربعة لنيل شهادة بكالوريوس في الآداب أو العلوم الإجتماعية أو العلوم الانسانية. من المعلوم أن معظم الطلبة الذين يختارون اللغة العربية كمادة لهم على مستوى البكالوريوس من المبتدئين، لا علم لهم بهذه اللغة مطلقا، يتعلمون لمدة ثلاث سنوات في الكليات لاجتياز هذه المرحلة من التعليم. وهذه المدة قصيرة و غير كافية لخلق الملكة اللغوية في الطلبة. أما الهدف من تعليم اللغة العربية في هذه المرحلة ، فينبغي للطلبة المتخرجين أن يكونوا قادرين على قراءة وفهم النصوص العربية السهلة بشمول نصوص الجرائد العربية، و يرجى منهم التمكن من التعبير عما في نفوسهم باللغة العربية السهلة بدون صعوبة.

فهذه المرحلة هي في الحقيقة المرحلة الأساسية فيتطلب جهدا من المتعلم لأنه يحتاج إلى معلّم يكشف له قواعد اللغة الجديدة. كما يحتاج إلى وقت طويل يبذله في التدرّب على تطبيق هذه القواعد مع تعرّضه للخطأ والتصحيح من قبل المعلّم. تحتاج هذه المرحلة إلى عناية كاملة، يفرض أن

يتقن الطالب منها اللغة العربية قرأة وكتابة، كما يفرض فيها أن يتعلم الطالب المقالات القصيرة والرسائل بلغة سهلة بسيطة. ولكن مع الأسف كثيرا ما يخيب ظننا ونضل أمانينا إذا رأينا أكثرهم لا يستطيعون على التكلم باللغة العربية ولا الكتابة بها.

أمّا الأساتذة الذين يدرّسون اللغة العربية في هذه الكليات، أكثرهم من خريجي الجامعات العصرية الهندية بحيث حصلوا على شهادة ماجستير، و عدد كبير منهم كتبوا رسالة الدكتوراة حول موضوع عربي باللغة العربية أو الأردية أو الإنجليزية، ولكن رصيد أكثرهم من هذه اللغة ضئيل جدّا. فلا تجيد الأغلبية من هؤلاء الدكاترة اللغة العربية، لا يستطيعون التكلم باللغة العربية والكتابة بها اللّهم إلاّ نرى عددا قليلا لهم قدرة على هذه اللغة خطابة و كتابة.

أما الطلاّب الذين يقصدون الجامعات العصرية ويلتحقون بها لنيل شهادة ماجستير، فيمكن أن نقسمهم إلى قسمين:

قسم يلتحقون بها مباشرا بعد ما تخرّجوا من المعاهد الدينية الإسلامية وهم يجيدون اللغة إلى حدّما بنسبة إلى المتخرجين من الكليات الحكومية، فيظنون أنه ليست لهم حاجة مزيد إلى تعلّم اللغة العربية، والواقع ان معظمهم لا يعرفون شيئا عن الفنون الأدبية، وكثير منهم ما درسوا العلوم الحديثة والمواد العصرية مثل الاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافية والرياضة واللغة الإنجليزية وغير ذلك من الآداب والعلوم التي تُدرس في الكليات والجامعات العصرية والتي قد تأثر بها اللغة العربية تأثرا بالغاً ملموسا فلا يمكنهم أن يفهموا اللغة فهما كاملا ما لم يأخذوا بنصيب وافر من هذه العلوم العصرية.

وقسم آخر من الطلاّب الذين يلتحقون بهذه الجامعات العصرية بعد التعلّم والدراسة في المدارس الثانوية والكليات الحكومية. وهم ضعفاء على وجه العموم في اللغة العربية بالنسبة إلى طلاّب القسم الأوّل فهم بدون شك يحتاجون إلى مزيد من العناية والتربية من قبل أساتذتهم. أليس من الغريب حقًا أن طالب الجامعة عندنا ممن يتخصص في العربية، لا يعرف الفرق بين الأصوات الصائتة والأصوات الصامتة، وبين المبتدأ و الخبر، و بين الجملة الإسمية و الجملة الفعلية، و يعرف ذلك تلميذ المرحلة الإبتدائية في أوروبا.

ولا شك أن بعض المعاهد ومنها جامعة كشمير قد تطورت مناهجها لتكون ملائمة بمقتضيات العصر الحديث، فنحن في الوقت الحاضر نرى أناسا من متخرجي الجامعة ، لهم قدرة على اللغة العربية خطابة و كتابة ، لكن عدد مثل هؤلاء الملمين باللغة العربية و

المتخصصين فيها قليل جدا.

مشاكل تدريس اللغة العربية وحلولها

بالرغم من أن اللغة العربية تدرّس الآن في كثير من المدارس والمعاهد الدينية والكليات والجامعات العصرية العلمانية توجد في منطقة كشمير، هناك مشاكل عديدة تواجه تدريس هذه اللغة في هذه المنطقة. فقبل أن نتناول هذه الأسباب أو المشاكل الّتي تقف في سبيل دراسة اللغة العربية في كشمير، ينبغي أن نعرف ما هو الهدف الرئيسي لدراسة اللغة العربية في المعاهد الكشميرية في الوقت الحاضر حتى يتسنّى لنا السير إلى الإمام في ضوئه.

مما لا شك فيه أن الظروف في هذه الأيام تغيّر كثيرا وأنها لم تعد على ما كانت عليه قبل أربعين سنة، فبعد تدفق البترول بمقدار كثير من الأرض العربية وقيام النهضة العمرانية والاقتصادية والصناعية هناك اتجهت انظار العالم إليها لموضعها الإستراتيجي ، إنّ العرب الآن ينمون بشكل سريع بفضل ما لديهم من ثروات نفطية و معدنية، ممّا يجعل لهم وزنا اقتصاديا و سياسيا كبيرا. و تتواكب أهمية اللغة مع الأهمية الاقتصادية و السياسية لأصحابها. وفي هذا الصدد هناك حاجة ماسة إلى دراسي اللغة العربية والملمّين بها إلماما تاما الّذين يستطيعون أن يخاطبوا العرب بلهجتهم، ويملاؤا الفجوة الّتي توجد بين الشعبين الكشميري والعربي بسبب تباين اللغات، فيجب أن يكون هذا هو الهدف الرئيسي من دراسة اللغة العربية في الوقت الحاضر بالإضافة إلى استخدامها لفهم الدين والثقافة الإسلامية العربية.

والواقع أن تعلّم لغة أجنبية ليس بالأمر السهل أو الهين، لكنه مع البحث والدراسة أمكن الوصول إلى عدة طرق لتعليم اللغة في وقت قصير وبجهد معقول، ولقد وضعت هذه الطرق موضع التجربة وكانت النتائج في بعض الأحيان مرضية لغاية. يحاول المشتغلون بتعليم اللغات الحية دائما البحث عن أيسر الطرق و أسهلها لإيصال أهدافهم اللغوية في أسرع وقت ممكن.لذلك فإن شيء يقف في طريقهم يعدّونه مشكلة حتى يجدوا له حلّا.

و من الطبيعي أن يواجه المهتمون بتعليم اللعة العربية للناطقين بغيرها عقبات جمّة و صعوبات متعددة، وتختلف صعوبة تعلّم اللغة الأجنبية تبعا لسن الدارس والبيئة الّتي يعيش فهيا أثناء تعلّمه اللغة، وتختلف أيضًا صعوبة تعلّم اللغة الأجنبية حسب طبيعتها من حيث مشابهتها أو اختلافها في الصوت أو الكتابة للغة الدارس الأصلية، ومن ثمّ يسهل على الكشميري مثلا تعلّم اللغة الفارسية، ويشق عليه تعلّم اللغات الأوربية أو اللغة الصينية.

والآن إذا أردنا أن نتناول المشاكل والصعوبات الّتي نواجهها في تدريس اللغة العربية على مستوى الكليات والجامعات نجد أن تعليم اللغة العربية يواجه مشكلات متعددة. يوجد بعضها في مرحلة الكلية قبل دخول الطلبة للحرم الجامعي وأكثرها داخل الجامعة، يمكننا اجمال هذه المشاكل و الصعوبات في الآتية.

١-المشكلة الصوتية:

اللغة أساسا نشاط شفوي أو كلام. فلقد تكلم الإنسان اللغة قبل أن يكتبها، وكثير من الناس في العالم يتكلمون اللغة ما دون أن يستطيعوا كتابتها. من المشكلات الهامة التي يواجهها معلّم العربية كلغة ثانية كيفية التغلب على صعوبات النطق لدي طلابه. و المشكلة الصوتية من المشاكل الخطيرة الّتي تواجه تعليم اللغة العربية في منطقة كشمير. ولعلّه مفيد قبل القيام بتحليل هذه المشكلة، أن ننظر في أصوات اللغة العربية وأصوات اللغة الكشميرية الّتي هي لغة الأم لدى كثير من المتعلّمين في المنطقة، للتعرف على نقاط التشابه و نقاط الاختلاف بين النظام الصوتي للعربية والنظام الصوتي للكشميرية. فإنّ وجود هذه المعلومات لدي المدرس يساعد إلى حد كبير في ادراك طبيعة الصعوبات النطقية الّتي يواجهها متعلّموا اللغة العربية هناك. ويمكن تقسيم مسألة الأصوات بالنسبة للدارسين إلى أقسام ثلاثة من حيث السهولة و الصعوبة.

(الألف):- الأصوات اللغوية المشتركة للعربية والكشميرية:- إذا قارنا بين صوامت اللغة العربية وصوامت الكشميرية وجدنا أن الأصوات اللغوية التالية مشتركة للغتين:

١. الاصوات الانفجارية: وهي الباء، والتاء، والدال، والكاف
٢. الصوت المركب: وهو الجيم
٣. الصوت الاحتكاكية: وهي الفاء، والسين، والشين، والهاء
٤. الأصوات الأنفية: وهي الميم والنون
٥. الصوت الجانبي: وهو اللام
٦. الصوت المكرّر: وهو الراء
٧. أصوات شبه صامته: وهي الواو والياء

وهي مجموعة الأصوات المشتركة للعربية وللكشميرية، لذلك لا نتوقّع أية صعوبة تذكر,اذا ما استطعنا تقديمها بصورة منطقية مناسبة، ومن خلال تدريبات لغوية مدروسة.

(ب) الأصوات الموجودة في الكشميرية والّتي لا توجد في اللغة العربية، هذه الفونيمات من خصائص اللغة الكشميرية الّتي لا يوجد مثيلها في نظام

الصوتي للغة العربية.و مثل هذه الأصوات: پ، چ،ڈ،ژ،ڑ،گ موجودة في الكشميرية، ولكن لا نجدها في النظام الصوتي للغة العربية.
(ج) الأصوات الموجودة في اللغة العربية والّتي ليست موجودة في الكشميرية. تظهر دراسة مقارنة بين أصوات اللغة العربية وأصوات الكشميرية، أن في اللغة العربية أصوات كثيرة لا توجد في الكشميرية و التي يرجّح أن تكون مصدر صعوبة خاصة للمتعلم. من هذه الأصوات مايلي:
١- الأصوات الانفجارية: وهي الطاء، والضاد، والقاف
٢- الأصوات الاحتكاكية: وهي الثاء، والذال، والظاء، والزاى، والصاد، والحا والخاء، والعين والغين

إن أصوات هذه المجموعة في الغالب ليست في مخارج لغة الدارسين الكشميرين الصوتية، لكن هناك ما يقاربها في المخرج و الصوت، وكلّ ما نحتاجه هذه الأصوات تقديمها بعناية كبيرة و تركيز شديد. ويلحظ فيها مدي صعوبة تعلّم الطلبة لبعض هذه الأصوات التي يجدون فيها صعوبة الأصوات الفخمة هي ص، ط، ض ، ظ ، حيث ينطقون ص كأنّها س و ط كأنّها ت و ض كأنها د ، و ظ كأنّها ذ كما يجدون صعوبة في نطق الأصوات ح خ ع حيث ينطق بعضهم | خ | كأنّها| ك+ه| ، و | ح | كأنّها | ه | . فالكلمة التي تحتوي على صوت مشكل أصعب من الكلمة التي لا تحتوي على مثل هذا الصوت.

و يتحلّل هذه المسألة بعض من المظاهر الصوتية التي قد تؤدي إلى نفور بعض متعلمي العربية لما تتطلبه من جهد لغوي كبير من الطالب والمدروس في الوقت نفسه. ومن هذه المظاهر الرئيسية مثل ظاهرة الصوائت القصيرة والطويلة، وظاهرة التنوين، وظاهرة التشابه الصوتي بين صوت الألف الممدودة و المقصورة.

تحليل المشكلة الصوتية:

الأصوات المشتركة بين العربية والكشميرية لا تقدم أية مشكلة نطقية خطيرة لدراسي اللغة العربية. يمكن تقسيم الأصوات الّتي يواجه المتعلمون صعوبة في نطقها إلى مجموعتين. المجموعة الأولى تشمل الأصوات الّتي توجد في العربية والكشميرية ولكن يختلف نطقها في العربية. أما المجموعة الثانية فهي تشتمل على الأصوات الموجودة في العربية وليست موجودة في الكشميرية. وتحتوى هذه الأصوات على:

ث/ ح/ خ/ ذ/ ز/ ص/ ض/ ط/ ظ/ ع/ غ/

وفي الواقع أن أخطر المشكلات الّتي يواجهها مدرّسوا االعربية

كلغة ثانية هو كيفية التغلب على صعوبات النطق لدي طلاّبهم فيما يتعلق بالأصوات سالفة الذكر. أن التلميذ الكشميري يبدأ قراءة الألفاظ العربية لكن لا يقرأها بنطقها الصحيح فهو لا يعرف الفرق في نطق الحروف الّتي تتشابه أصواتها مثل الذال والزاى والظاء، والثاء والسين والصاد ، والطاء والتاء، والكاف الصغير والقاف الكبير، وغيرها ولهذا السبب يكون طالب اللغة العربية في كشميرعاجزا عن المحادثة مع العرب أو فهم ما يقولونه حتى في الفصحى أيضًا.

ونلاحظ أن من الأصوات الصعبة على دارسي العربية في منطقة كشمير هي الأصوات الفخمة أو المطبقة. و بسبب عدم وجود هذه الأصوات في كشمير يصعب على الطلاب تمييز ص/ عن / س، وتمييز ض/ عن / د، وتمييز ط/عن/ ت، وتمييز ظ/ عن/ ذ ولذلك لا يدركون الفرق الوظيفي بين الصوتين في كل زوج من الثنائيات الصغرى التالية:-

سيف، صيف = / س/ و / ص /
دلّ ، ضلّ = / د / و / ض /
تين، طين = / ت / و / ط /
ذلّ، ظلّ = / ذ / و / ظ /

و يقصد بهذه الثنائية كلمتان تختلفان في المعنى و تتشابهان في النطق، وكذلك يصعب على متعلمي اللغة العربية في كشمير التمييز بين كل زوج من هذه الأصوات كما تظهر في الثنائيات الصغرى التالية:

ألم ، علم = / أ / و / ع /
اسم، اثم = / س / و / ث /
هرب، حرب = / هـ / و / ح /
كلب، قلب = / ك / و / ق /

الحل من هذه المشكلة هو أن يدرّب المدرس الأصوات فيها تلك الأحرف، وحين يكتشف للمعلم أن تلاميذه لا يعرفون الفرق بين صوتين متشابهين مثل ت| و| ط | أو ك | و| ق | ، فإنّ عليه أن يفعل شيئا لمساعدتهم في التغلب على هذه المشكلة.و عليه أن يقوم بتدريبات نحو التالي:-

(الف) التعرف على الأَصوات المذكورة في المفردات المعروفة وهي الأعلام مثل: حارث، صالح، عثمان، عابد، خالد، طلحة
(ب) تقديم نموذج النطق و أن يبدأ بالصوت الأسهل.
(ج) استخدام الثنائيات الصغرى في تمارين النطق.
(د) التمييز بين الأصوات مثل صالح/ سالح ، حرم/ هرم، علم/ الم ، تين / طين

(ه) تدريب الطلاّب على الأصوات المتشابه مستخدمين كلمات أولا، ثم أشباه جمل ثانيا ثم جملا ثالثا.

٢-عدم وضوح الأهداف في الأذهان:

وهذه مشكلة أخرى من مشكلات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها إذ أن أكثر متعلمي اللغة العربية في كشمير لا يعرفون بضبط ما هي أهداف تعلّم اللغة عندهم. كما نجد أكثر المدرسين لا يخططون لموضوعاتهم التخطيط السليم ولا يدركون الأهداف الّتي يرمون إليها من خلال تدريس كل موضوع من موضوعات المادة. ومن الواضح أن تدريس فروع اللغة العربية على أن كلا منها غاية في حد ذاته، لا يؤدي إلى تحقيق الأهداف المرسومة لتعليم اللغة، ذلك لأن القواعد وسيلة لصحة الكتابة، والقراءة والنصوص وسيلة لخدمة التعبير والاتصال اللغوي، فإذا انصرف المدرّس إلى تعليم القواعد على أنها غاية أخفق في تعليم اللغة، ولذلك كان لا بدّ من تحديد الأهداف السلوكية العامة في كل مادة، ثمّ في كل موضوع على حدة، فوضوح الأهداف يساعد في نجاح العملية التعليمية.

٣- ضعف خلفيّة الطلاب بالعربية:

ومما يلاحظ أن الطلاّب الّذين يتعلمون اللغة العربية في كشمير خلفيتهم بالعربية ضعيفة جدّا والسبب ذلك يعود إلى أن أغلبية الدارسين في كشمير ليست لديهم معلومات سابقة عن اللغة العربية قبل دخولهم إلى المدارس الثانوية والكليات، نتيجة لعدم تعليم اللغة العربية في مدارسهم الابتدائية والمتوسطة و في أكثر المدارس الثانوية وبالإضافة إلى ذلك أن معظم التلاميذ الّذين يلتحقون المدارس الثانوية وبالكليات الحكومية.لا يأتون من المدارس الإسلامية. فمنهم من يأتي من مدارس حكومية أو مدارس خاصة التي لا تدرس فيها اللغة العربية . و من ثمّ هْولاء التلاميذ لا يعرفون شيئا اطلاقا عن اللغة العربية.

٤-الإستغناء عن اللغة العربية

و لا يزال الأسلوب التعليم للدراسات العربية في الكليات و الجامعات الحكومية متخلّفا جدّا. و نظام التعليم الرائج في أقسام اللغة العربية لا يشجع دراسة اللغة إذ يختص هذا النظام بدراسة الادب العربي أكثر لذاته، و معلوم ان وسيلة التعليم في هذه الكليات و المعاهد، هي الإنجليزية أو الأردوية بدلا من العربية.فيكتفي الطلبة بدراسة مختلف أصناف الادب العربي بواسطة تراجمها الى الإنجليزية أو الأردوية، و كل ما يطلب من الطلبة للنجاح و الحصول على درجة ممتازة هو أن يترجموا بعض النصوص العربية المقررة إلى الإنجليزية و الأردوية ، و أي يجيبوا بعض الأسئلة في تاريخ الأدب العربي أو نقده في اللغة يختارونها كوسيلة التعلم و من الغريب جدا أنه لا يطلب منهم أن يتقنوا اللغة العربية فهما و

قراءة و كتابة و مكالمة حتى لنيل الشهادات الجامعية العليا في اللغة العربية و آ دابها بدلا من أن يكون ذلك بمثابة الشرط الأساسي للحصول هذه الشهادات. ولهذا السبب يكون الطلبة ضعفاء في استخدام اللغة العربية كأداة التعبير كتابة و مكالمة و أكثرهم لا يقدرون حتى على قراءة النصوص العربية البسيطة، و القليل النادر منهم الذين يجيدون العربية فيكون معظم من خريجي المدارس والمعاهد الدينية العربية . فالفضل في ذلك يعود إلى المدارس التي تخرجوا منها و لا أقسام العربية الجامعية التي التحقوا بها لنيل الشهادات العليا، هكذا أصبحت البيئة و الظروف غير مواتية لدراسة اللغة العربية في كلياتنا و جامعاتنا بسبب نظام التعليم الرائج فيها .

٥-استخدام الطرق التقليدية:

من العيوب الظاهرة في تدريس اللغة العربية في كشمير استخدام الطرق التقليدية في تقديم المواد التعليمية وتنظيمها. والطريقة الّتي ساد استخدامها في أكثرية المدارس حتى في الكليات والجامعات هي ما يسمّى بطريقة القواعد والترجمة. وهي أقدم الطرق الّتي استخدمت في تدريس اللغة الأجنبية من أقدم العصور.

وفي هذه الحالة لا تستخدم اللغة العربية في غرفة الدراسة أي استخدام فيما عدا بعض العبارات والكلمات المتعلقة بالقراءة والكتابة والترجمة، يهمل المعلّم مهارة الكلام ولا يعطيها الاهتمام اللازم، كما لا يهتم بالجوانب الأخرى من نطق الكلام أي النبر والتنغيم ، وعلى العكس هناك عناية زائدة وتركيز شديد على معرفة مبادئ قواعد اللغة العربية وعلى هذا هناك ضعف بيّن في التّدريب على استخدام اللغة العربية كوسيلة تعبير عن الأفكار بالكلام.

ما عدا الطريقة التقليدية أو طريقة القواعد و الترجمة هناك طرق متنوعة لتدريس اللغات الأجنبية، منها الطريقة المباشرة ، و الطريقة السمعية الشفوية ، و الطريقة الإنتقائية. و لنا أن نستخدم الطريقة المباشرة التي تعطي الأولية لمهارة الكلام على أساس بأن اللغة هي الكلام بشكل أساسي.

٦- مشكلات الكتابة:

إنّ الكتابة إحدى المهارات الأساسية في تعلّم اللغة الأولي و اللغة الأجنبية على حدّ سواء. من المشاكل المهمّة التي يواجهها متعلّمو اللغة العربية غير الناطقين بها هي مشكلة الكتابة . يذهب كثير من الباحثين إلى أن أوّل ما يواجهه المتعلّم للغة العربية في عملية الكتابة هو تشابه بعض الحروف في الصوت و الشكل ، و معيار الفرق هو النطق و اختلاف النقط. و مثال ذلك: | أ و ع\ \ت و ط \ ث و س \ د و ض \ ذ و ظ \ وفي الشكل تشابه ب ت ث \ ج ح خ \ع غ \ كما ان الحرف (ي) يتغير شكله

في أول الكلمة عند في آخرها ، فالحرف الواحد قد يأخذ عند الكتابة أشكالا مختلفة.فحرف العين(ع) مثلا يأخذ أكثر من شكل في كلمات ك : عمد – معه - باع - يبيع . سيجد المعلّم أن الطلاّب الكشميرين و خاصة المبتدئين منهم، يخطئون في مواقف متنوّعة و أهم حالات الخطاء هي :-

١-عدم التمييز بين الحروف المتشابهة في الصوت و الشكل.
٢- عدم التمييز بين همزتي الوصل و القطع .
٣- عدم كتابة الألف الفارقة بين واو الجماعة و واو الفعل.
٤- فصل ما حقه الوصل و الوصل ما حقه الفصل.
٥- كتابة التاء المفتوحة تاء مربوطة.
٦- كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة .
٧- كتابة الشدّة بحرفين.
٨- الخلط بين الألف الممدودة والمقصورة.
٩- الخلط بين التاء المربوطة و الهاء
١٠- إبدال حرف بآخر .

٧- عدم استخدام الوسائل التعليمية

ومما لا شك فيه أن استخدام الوسائل التعليمية أمر مهمّ في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها. تنقسم هذه المعينات الى ثلاثة أنواع وهي معينات سمعية، ومعينات بصرية، ومعينات سمعية بصرية. أما المعينات السمعية فهي تشتمل على الراديو والتلفاز والتسجيلات الصوتية والاسطوانات ومختبر اللغة. وأما المعينات البصرية فهي الصور والرسوم والخرائط والشرائح والتمثيليات وآلة الحاسوب (الكمبيوتر) وأشرطة التسجيل. وتشمل معينات سمعية بصرية التلفزيون والأفلام الناطقة و الشبكة الفضائية وانترنيت وغيرها. من المهم لمدرّس اللغة العربية أن يكون على معرفة تامة بكيفية اختيار أنسب الوسائل التعليمية و تقديمها والإستفادة منها وذلك لكي يستخدمها في تعليم المهارات الأساسية للغة العربية.

وإذا ألقينا نظرة على الأساليب المستخدمة في تدريس اللغة العربية في كشمير فإنّه من النادر أن نجد أي وسيلة تعليمية في المدارس و الكليات سوى سبورة يمكن أن تساعد المتعلّم في فهم المعنى اللغوي أو الثقافي للمادة العربية المقدّمة. يعيق هذا النقص سير تدريس اللغة العربية سواء كانت للصغار أم الكبار.

و بإضافة إلى المشكلات الخاصة المذكورة هناك عدة المشاكل الأخرى العامة التي تواجهها عملية تدريس اللغة العربية في كشمير وهي:-

- ازدحام الفصول بطلبة في الكليات الحكومية .
- انتماء طلاّب الفصل إلى خلفيات لغوية و ثقافية.
- اختلاف مستوى الطلاّب اللغوي عن الصف الواحد.

- عدم اهتمام الطلاب بمظرهم و ضعف تجاوبهم مع المدرس.
- عدم اهتمام بعض الطلاب بمشاركة الأنشطة التعليمية .
- ضعف المدرس في بعض مهارات اللغة و عناصرها.
- قلة إلمام المدرس بالجوانب التربوية الحديثة .
- عدم توفير الوسائل التعليم
- علمنا مما سبق أن دارسي و مدرّسي اللغة العربية كلّهم يواجهون مشاكل و صعوبات متنوعة في تعلّم و تعليم اللغة العربية في الكليات و الجامعات توجد في كشمير . فحددنا هذه الصعوبات و حاولنا تحليلها حسب استطاعنا. أما النقطة الأخيرة التي تختص بحلول هذه المشاكل فهي بالاختصار اصلاح المناهج الدراسية بإدخال التعديلات اللازمة المناسبة مع التركيز على الجانب اللغوي بنسبة إلى الجانب الادبي، و تدريس النثر الجديد مكان الشعر القديم، والاهتمام بقراءة الجرائد اليومية ، و خلق الجو الملائم للتحد ث والتكلم كإقامة النوادي و عقد الندوات العلمية، و تنظيم رحلات الطلاّب إلى البلدان العربية و تمرينهم قراءة و كتابة ومكالمة، وتربية المعلّمين وتثقيفهم لتدريس اللغة العربية على مباديء تربوية جديد، و نرى أن التدريب الفعّال لمدرّسي اللغة العربية هو الحل الفعّال لكثير من هذه المشاكل. فاذا تدرّب المدرّسون على أساليب حديثة لتدريس اللغة العربية، استطاعوا تطوير قدرات الطلاّب اللغوية و معالجة صعوباتهم في القراءة و الكتابة و المكالمة.

ولا شكّ في أن تدريب المعلّمين الفعّال لا يحسن طرائق تدريس العربية فحسب، سوف يرفع مستوى اللغة العربية في المراحل الدراسية المختلفة في ولاية جامو و كشمير.

المصادر والمراجع:-

١- الندوي، د. محمد مظفر حسين: مساهمات أهل كشمير في اللغة العربية و آدابها، المكتبة الندوية، سرينغر ٢٠٠٤ م.
٢- البخاري، د. محمد فاروق: كشميرمين عربي زبان و ادب كا ارتقاء: سرينغر، ١٩٨٤م.
٣- الخولي، د. محمد علي: أساليب تدريس اللغة العربية. الرياض: دار العلوم، ١٩٨٢م .
٤- قورة، د. حسين سليمان: تعليم اللغة العربية: القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩م.
٥- الخولي، د. محمد علي : دراسات لغوية . الرياض : دار العلوم، ١٩٨٢ م.

٦- عمر، د.أحمد مختار: دراسات الصوت اللغوي ، القاهرة، ١٩٧٦م.
٧- مجلّة "ثقافة الهند" المجلد ٣٤،العدد ٣-٤ سنة ١٩٨٣م.
٨- مجلّة "العلوم الإنسانية والإجتماعية" المجلّد ٣٢، العدد ٢٠٠٥م.
٩- مجلّة " الصحوة الإسلامية " العدد :٣٧ ، يونيو ٢٠٠١ م.

الشعرالعربي في كشمير و سماته البارزة

الدكتور شادحسين•

الشعر أقدم تعبير أدبي في كل لغة وهذا التعبير يكون تلقائيا فعلى حدّ قول وردز ورث (Wordsworth) الشاعر الانكليزي هو "فيضان تلقائي للعواطف" والأجدر أن يكون هذا التعبير في لغة الأم لكونها المساعدة على تعبير واضح عن العواطف الصادقة الجياشة. أما نظم الشعر في لغة مكتسبة فلا نرده ردًا فله أمثلة كثيرة في الآداب العالمية غير أن هذا الشعر يكون عادة دون الشعر المنظوم في لغة الأم. فانتقاء الكلمات اللائقة من أهم مكونات جمال الأسلوب وتسهل هذه العملية في لغة الأم. اللهم إلاّ أن الموهبة والمران المستمر يساعدان المرء في اتقان لغة أجنبية والتعبير فيها حتى يفوق أحيانا على ناطقي تلك اللغة فقد فاق ابن المقفع على كثير من أدباء العرب. وعلى هذا المبدأ نشأ الشعر العربي في بلاد برابره وفارسية وتركية وهندية. وأما كشمير فقد نبغ أهاليها في لغات أجنبية عديدة وعبّروا فيها عن مشاعرهم شعراً عبر العصور. فازدهر الشعر السنسكريتي ثمّ الشعر الفارسي في هذه البقعة. وأما الشعر العربي فقد بدت طلائعه في ظلال الشعر الفارسي وقد نظم في اللغة العربية أول الأمر أولئك الّذين كانوا من الشعراء الفارسية المفلقين.

يجدر بالذكر أن أهالي كشمير مازالوا أميل إلى الشعر والتغني به منذ أقدم العصور فقد تغني أهاليها في المعابد البوذية والهندوسية بأعلى صوتهم حتى اضطر الداعية الاسلامي الكبير سيد علي بن شهاب الدين الهمداني أن يسمح بهم أن يجهروا بذكر الله في صورة شبه غنائية. وقد نظم هذا الداعي مدح النبي في أسلوب يشابه الشعر:

الصلوة والسلام عليك يا رسول الله
الصلوة والسلام عليك ياحبيب الله

• الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

الصلوة والسلام عليك ياخليل الله
الصلوة والسلام عليك يا نبي الله
الصلوة والسلام عليك يا صفي الله [١]

لعلنا لا نبالغ إذ نعد هذا المدح طيلة الشعر العربي في كشمير. وهناك مواقف كثيرة في أوراده الّتي تنم عن الموسيقى الخارجية فهي تنبع من تناغم الأصوات فالنص التالي يدل على هذه الحقيقة:

لا إله إلاّ الله المعبود بكل مكان
لا إله إلاّ الله المذكور بكل لسان
لا إله إلاّ الله المعروف بكل إحسان

وهذه المواقف تدل أيضًا على شغفه بالشعر فقد أورد أشعار المتقديمن في مصنفاته ومن العوامل المساعدة أيضًا أن كشمير لم يزل مهبط العلم والعلماء منذ أقدم العصور والمناخ والبيئة في هذه البقعة اليق لنشأة الشعر وجلب العلماء فيقال إن الشيخ شهاب الدين هاجر سندهـ واستوطن كشمير في زمن سلطان حسن ابن زين العابدين فقد سُرّ بجمال كشيمر حتى قال:

كان الكشمير وسكّانها جنّات عدن هي للمؤمنين
قد كتب الله على بابها من دخله كان في الآمنين[٢]

بدأت طلائع الشعر العربي في كشمير عند العلماء الّذين قرضوا أكثر شعرهم في اللغة الفارسية. وظهرت هذه الطلائع بصورة واضحة في أواخر القرن السادس عشر فيعد الشيخ يعقوب الصرفي من العلماء المرموقين في شبه القارة الهندية في هذا القرن. وقد كان تلمذ على ابن هجر المكي فله مصنفات قيمة في التفسير والحديث،و له دواوين الشعر بالفارسية وكان يقرض الشعر بالعربية أيضًا وقد حاكى الصرفي الشعراء الفارسية المرموقين أمثال حافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي في نظم الشعر بين العربية والفارسية فعلى سبيل المثال له كتاب "مغازي النبي" في اطار النظم بالفارسية وقد اختتمه ببيت عربي قائلا:

أجب دعوتي هذا يا مجيب بنصر قوي بفتح قريب [٣]

و له في مدحة النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة بالفارسية يتخللها بيت بالعربية كقوله:

امام المرسلين ختم النبيين ليس الّاهو عظيم الخلق ما لم يوجد سوى هذا[٤]

وفيها بيت آخر ممزوج بين العربية و الفارسية كقوله:

فإن لم ترحم الصرفي لكلت أمّه اياه وكرلطفت نكيرد دست اين افتاد واويلا

و له في المديح النبوي ديوان صغير سماه ب"أوراد" وهويحتوي على ١٠٩ بيت يستوفي فيها الحروف الهجاء لتقفية قصائده فكل قصيدة على تقفية حرف منها، يستهل قصيدته الأولى بهذه الأبيات:

اللهمّ صلّ على محمّد الذي له الثناء والحسنى
اللهمّ صلّ على محمّد الذي له جنة الهوى
اللهمّ صلّ على محمّد الذي هو من أنفسنا
اللهمّ صلّ على محمّد الذي ازواجه امّهاتنا [٥]

هذا و قد نظم ٤٦ بيتا تقريظًا على تفسير سواطع الالهام لابي الفيض فيضي وهذا التقريظ شاهد على علو كعبه في اللغة ورفعة شأنه في الدوائر العلمية في تلك الآونة.

ويتبع حبيب الله الحبي النوشهري أستاذه الصرفي في قرض الشعر بالعربية وفي المزاج بين العربية و الفارسية و إن كان أكثر شعره بالفارسية فعلى سبيل المثال نظم غزلاً على البحر الّذي نظم فيها الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي الذي مطلعه:

أحنّ شوقا إلى ديار لقيت فيها جمال سلمى
كه مى رساند زوادى غم بيام محزون به خانه ما

فيقول الحبي :

أردتُ أخذ الغزال يوما فصرت صيدًا لعين عذرا
يكي نباشد چو من بعالم شكسته حالى به نسل آدم
حببت حبا قتلت قتلا غرقت غرقا حرمت نارا
ببين كه سودا كرد جانم مبين كه سودى دران نديدم

شريت غمّا بهمّ دنيا وبعت همّا بغم سلمى[٦]

وربما ينظم الحبي هذه القصيدة في تتبع الصرفي لأنه كان سابقه في النظم على نفس البحر فقد كان مشغوفا بطرازه و يمدحه في قصيدة تحت عنوان"أحوال حضرت ايشان" فمطلع هذه القصيدة:

حامدا للذي هو الهادي في سفار البلاد والوادي[٧]

ويوجد هذا الطراز أيضًا عند أمير خسروالهندي، غير أن تأثر الصرفي و الحبي بالشعراء الفارسية أرجح وقد نظم الحبي قصيدة بالعربية وسماها "الانصاف في بيان طريقة النجاة" وهي في اطار المثنوي. فقد يرى د. حامد علي خان أن النظم على هذا المنهج محاولة أولى في شبه القارة[٨] وبعد قرن وبضع سنين نرى الشاعر الهندي العملاق غلام علي آزاد البلكرامي يسير على نفس الدرب في نظم ديوانه "مظهر البركات" فللحبي قصب السبق بهذا الصدد في شبة القارة وقد تناول الحبي في قصيدته مبادئ طريقة السلوك وخصائص المنهج الكبروى الّذي اسسه علي بن شهاب الدين الهمذاني. استهل الحبي قصيدته بالأشعار التالية:

مذهب العشق مذهب واحد إذهب إذهب عليه يا زاهد
ليس للعقل اجتهاد فيه ليس للنقل اعتماد فيه[٩]

وللحبي في العربية أبيات أو شطور الابيات كثيرة في كتب شعره أو نظمه مثل ديوان حبي، تنبيه القلوب ومرآة القلوب. ومن معاصري الحبي ملا طيب (ت١٦٧٥م) وأخوند ملا نازك (ت١٦٨٥م) فقد قرضا الشعر في الفارسية والعربية غير أنه لم يحفظ من شعرهم إلاّ طفيفا وهذه الأشعار تنم عن ميلهم إلى الصوفية كما أنّها تدلّ على المامهم باللغة العربية فيقول أخوند ملا نازك:

نحن نشرب دائما خمر الودود
ليس للزهاد من هذا نصيب
نحن ندعوا حاضرًا في حضرتك
يا دليل الحائرين ريب المجيب[١٠]

وأكبر شعراء العربية في هذا القرن أخوند ملا شاه محمد البدخشي (ت١٦٦٢م] صاحب تفسير عربي على طريقة صوفية ومرشد دار الشكوه ابن شاهجهان الملك المغولي الشهير فله ديوان عربي ضخيم سماه "كنز الله" يحتوي هذا الديوان على ١٧٠٤ بيت فهو يتفنن في نظمه ويراعي بالمحسنات البديعية وقد قسم ديوانه في ٧ اقسام ففي القسم الأوّل ٢٨ قصدة فيستخدم كل حرف من حروف الهجاء لتقفية قصائده وقسم الثاني من ديوانه يشتمل على ٢٨ غزلا

فيلتزم نفس المنهج في التقفية وفي القسم الثالث رباعيات مع مراعاة التفنن في التقفية وفي القسم الرابع قصائد في حمد الله سبحانه وتعالى وثناءه ويستوفى حروف الهجاء تقفية في كل قصيدة فكل قصيدة يحتوي على ٢٨ بيتا. وفي القسم الخامس مثنويات مع تفنن في التقفية والقسم السادس يحتوي على قطعات بعضها معنونة وأخرى غير معنونة. وفي القسم السابع ٦٣٩ شعرا تحت ١١١ عنوانا. وقد نظم الملا هذا الديوان في فترة ١٦٥٢-١٦٥٥هـ. ومن أهم سمات شعره التزامه البدائع اللفظية والمعنوية فعلى سبيل المثال يقول:

إني أقول حرفا إن كان فيك طرفا
أنت الشراب شكرا ما أنت كالسراب[١١]

ويقول:

قيام الشكر والشكر صيام دوام السكر والسكر صلوة

وأما موضوعات شعره فأكثر شعره يدور حول التصوف والسلوك. والحق أن القرن السابع عشر شهد ازدهارًا ثقافيا ملحوظا في كشمير فنرى آثار الشعر العربي في كنفه.

تهاونت النشاطات الثقافية في القرن الثامن عشر فلم نطلع على كثير من الشعر العربي إلاّ أننا نجد آثاره عند ميرزا كامل البدخشي (ت١٧١٩م) فله قصيدة ميمية الّتي سار فيها على منهج المتصوفين. وهو صاحب المصنفات والدواين الشعريه في الفارسية وشعره ينم عن فيض خاطره. وكذلك نجد آثار الشعر العربي الطفيفة عند عبد الغفور الشوبياني فقد عاش في النصف الثاني للقرن الثامن عشر والربع الأوّل للقرن التاسع عشر فله في اللغة الفارسية مثنوى منظوم سماه بـ"بنج كنج" عالج فيها الاركان الخمسة للاسلام من الإيمان والصلواة والزكوة والصوم والحج فقد كان واسع الاطلاع على الكتاب والسنة والفقه كما كان يتقن العربية فأشعاره العربية الّتي تتخلل في منظومه خير دليل عليه فعلى سبيل المثال يستهل منظومه بأبيات عربية:

حمد لك يا واهب فياض وجود
واجب است بذات باك تو سجود
كل اوقات لك حمد وثناء
من لسان الكل إليك ربنا

إن في قلبي سرورا عن جمال
من شهودك لذة في كل حال
عن جمالك بهجة قلبي مدام
اسقني من حبك كأس الدوام[١٢]

ظل التهاون الثقافي سائدا في كشمير في القرن التاسع عشر أيضًا إلاّ أن بعض ابنائها سافر في انحاء شبه القارة وتلمذ على اعيان العلم حتى نبغ في انواع الثقافة وفاق على اقرانه فالشيخ عبد الرشيد الشوبياني.

وصدر الدين آزرده من هؤلاء النابغين، فكان صدر الدين طويل الباع في العلوم الأدبية حتى أصبح يضاهي أعشى وجرير على حد تعبير أشرف علي التهانوي[١٣] وكان يتقن اللغة العربية ويلمّ بآدابها الماما وقد استفاد به اعيان الثقافة في الهند أمثال نواب صديق حسن خان وسرسيد أحمد خان واسد الله خان الغالب. وكان يقرض الشعر بالعربية بالإضافة إلى الفارسية والأردية غير أنه لم يبق من آثاره العربية إلاّ طفيفا وأما عبد الرشيد الشوبياني فقد اتخذه النواب صديق حسن خان صاحب الآثار العربية الضخمة نديما له ومصاحبا لعلو مرتبته في العلم وله تقريظ على مصنفه "ظفر اللاضي بما يجب في القضاء على القاضي" كما أنّه ألّف كتابا باسم آيات الاعجاز عالج فيه موضوع اعجاز القرآن. وقد قرض الشعر فأحسن وقد بدأ تقريظه للكتاب ظفر اللاضي بالحمدلة في إطار الشعر على طريقة المثنوي فيقول:

باسم الاله العالمين أبتدي وبسنا نور الهدى أقتدي
سبحانك اللهم لا نحصي الثناء عليك ما عجز عنه الالسنا[١٤]

وفي تقريظ منظوم آخر للكتاب المنتقي من أحاديث الأحكام مدح مؤلفه مجد الدين ابن تيمية بقوله:

منهم إمام بارع متورّع حدّ الكرام وصفوة الأعيان
ميزان عدل في الحديث وركنه تأوي إليه عساكر الفرقان[١٥]

وممن قرض الشعر بالعربية في هذه الحقبة مير سيف الدين التاره بلي (ت١٨٧٣م) الّذي يعد من شعراء الكشميرية المرموقين فله في الكشميرية ديوان ضخم باسم "وامق عذراء" ولم يبلغ شأو عبد الرشيد الشوبياني وصدر الدين آزرده في المامه بالعربية إلاّ أن شعره

خرج منه عفو الخاطر فيقول في مدح النبي:

حبيبي البطحيّ يثربيّ قريشيّ نبيّ هاشميّ
نبي نور الدنيا محياه صفي عطّر الأكوان ريّاه
إمام الأنبياء والأتقياء همام الاصفياء والأولياء[١٦]

ومن معاصري التاره بلي شيخ أحمد الواعظ (ت١٨٧٣م) صاحب المصنفات الضخمة في العربية في شتى الموضوعات وقد قرض الشعر في اللغة العربية غير أن الجانب الفكري والعلمي يغلب على الجانب العاطفي في شعره والموضوعات المفضلة لديه مدح النبي والتصوف. فقصيدته "المخمس اللطيف في تعريف آثار الشريف" على نهج المخمسات تحوى ٣٤ مقطعا الّتي تتألف من ٦٤ بيتا وله قصيدة طويلة في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني وقد افتتحه بأبيات تالية:

بأصناف المحامد أحمد الله على تحسين حالي كل حالي
نبي سيد الرسل الكرام حبيب الحق حقا ذو الجلال
كفى في لغته أثنى عليه وصلّى رب العرش ذو الجلال

وينتمي إلى هذه الحقبة أيضًا. مصطفى خان بن نصير بختور [١٧٩٣م-١٨٥٥م] ترعرع في بيئة علمية تلمذ على العلماء الكبار في عصره أمثال ملا عبيد الله وازدان بعلوم القرآن والحديث والفقه كان يتقن اللغة العربية وفاضت قريحته الشعرية. اكبّ على تدريس العلوم العربية وتمهر في النحو والصرف والعروض. فنظم قواعد النحو في منظوم سمّاه بـ"نظام المآرب" فيفتتح هذا المنظوم بحمد لله قائلا:

رحب النحو حمد لله فترحّم عليّ يا مولاه
أحمد الله ربي الأعلى شاكرا بالمحامد المثلى[١٧]

ثمّ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم:

أحمد المجتبى السلام عليه انما نحن ضارعون إليه
الّذي هو نبينا الشافع يوم فصل نبطقة النافع
جاء بقرآن أبلغ الكتاب أبكم الأفصحين في العرب

ثمّ يأتي بقواعد النحو بطريقه سهلة لا غموض فيها.

أمل النحو عرّفوا الكلمة لفظ الوضع فيه قدمه
اجل معنى بمفرد يوصف رفعه نصبه كذا يعرف

هو اسم وفعل وحرف نحو لولاك لا تمحى الصرف

وله قصيدة أخرى في مدح عبد القادر الجيلاني في اطار الرباعيات وهي تحتوي على ٢٤ قطعة على طراز القصيدة المدحية للإمام اليافعي فتبدأ القصيدة بقوله:

الشيخ عبد القادر ابن النجا الطاهر
الناصر المستنصر صلو عليه دائما[١٨]

وله مجموعة من منظومات عربية فاهتم بتقفية كل منظوم بحرف من حروف الهجاء. والطريف أن كل منظوم يبدأ بحرف ويختم بنفس الحرف. يختلف عدد أبيات كل منظوم من سبع أبيات إلى خمسة عشر بيتا. اللهم إلاّ أنه لم ينظم بتقفية بعض الحروف فمنها الخاء والسين والشين والهاء. فبدأ المجموعة بحرف الهمزة واستهل بحمدلة بقوله "أحمد الله" ويمدح الشاعر النبي في منظوم بتفقيه حرف باء:

بنفسي نبي العرب والعجم من أولاد نضر رفيع القلب
برئ بارئ أولا نوره منير، عزيز، جليل الحسب
بشير نذير من أسمائه وهو في قريش شريف النسب[١٩]

يتبين بتتبع شعره أنه كان آخذا بناصية اللغة العربية ولم يتكلف في نظم الشعر.

وأما القرن العشرين فقد ظهرفي مستهله في أفق الشعر العربي في كشمير أنور شاه الكشميري [١٨٧٥-١٩٣٣م] كنجم ثاقب. ذاع صيته في شبه القارة لتبحره في العلوم المختلفة فمصنفاته العربية في العلوم الدينية نالت استحسانا كبيرا في الدوائر العلمية. وكان شديد الرغبة بالأدب العربي فقد كان يحفظ آلاف الأشعار لشعراء العرب الأقدميين. وقد نما ذوقه الأدبي بهذه المعاملة فلما قرض الشعر لم يمس شعره الركاكة والعجمة كعادة أكثر الشعر العربي في شبه القارة فلا غرو أنه يُعد من أكابر الشعراء العربية في شبه القارة ولم يبلغ أحد شاؤه في كشمير. نظم الشعر في الفنون المختلفة فأجاد فهو يضاهي الخنساء في رثاءه وامرئ القيس في أسلوبه المتنين الرصين المعجز[٢٠]. قام الدكتور فاروق البخاري بمعالجة شعره فوجده في الأنواع الثلاثة:

١. النوع اللأول تحتوي على المراثي الّتي نظمها على موت

أساتذته ومشائخه ومعاصريه والحق أن هذا النوع الشعري يزدخر بعواطف عميقة وينبع من شعور صادق. فمن أهم هذه القصائد نظمها عند موت شيخ الهند محمود الحسن ومولانا محمّد قاسم النانوتوي ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي.

٢. والنوع الثاني من شعره يشبه بالشعر الحماسي فهذه القصائد تحتوي على الحمية الأسلوبية والحماسة الدينية فيشتمل هذا النوع من شعره علي رد القاديانية وشعره القومي الإسلامي وقد عدّ الدكتور شعره في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا من هذا النوع لأنّ شخصيته لا تزال غضة طرية.

٣. وأما القسم الثالث فهو شعره التعليمي فقد نظم الشاعر قضايا علمية وفكرية في منظومه"ضرب الخاتم على حدوث العالم". كما نظم قصيدة في العقائد الإسلامية متتبعا ابن قيم الجوزية في قصيدته "نونيه الآحاد". (٢١)

والحق أن أنور شاه الكشميري كان على القمه في شاعريته وقد فاق الشعرا الهنود الكثيرين لأسلوبه الرشيق فهو يجاري شعراء العرب لسلاسته وانتقاء كلماته وتراكيبه. فهو جدير بأن يعد مفخرة كشمير.ولا أريد أن أطيل كلامي بصدد ذكره فقد قام استاذي الدكتور فاروق البخاري وزميلي الفاضل الدكتور مظفرحسين الندوي بذكر مزايا شعره بإسهاب.

وقد اقتدى سيد ميرك شاه الأندرابي (ت١٩٧٥م) صاحب "شرح محيط الدائرة" أستاذه أنور شاه في كثير من نشاطاته مثل ايقاف نفسه لتثقيف الناس تثقيفا دينيا ورد القاديانية والاهتمام بالأدب والشعر. وقد كان يقرض الشعر وخير شعره هو الّذي صدر عنه عفوًا دون أي تكلّف. وكان يمتلك حاسة نقد الشعر وشرحه أيضًا. ومن خير شعره مراثيه الّتي قالها عند وفاة أساتذته وشيوخه. وفاضت عواطفه عند وفاة أنور شاه الكشميري فنظم قصيدته الرائية وبدأه بهذه الأشعار:

سقى الله رمسا فيه بدر منور أضاءت به الآفاق إذ كان يزهر
من الديم المدرار ما ذرّ شارق عهادا تروي غيثه ويخضر
قرارة بحر العلم أم رمس أنور قديس محيط القدس أم هو جوهر(٢٢)

ومرثيته عند وفاة الشيخ حسين أحمد المدني خير دليل على

قريحته الشعرية الفائقة فقد خرج منه عفو الخاطر فقال:

أراب القلب أنباء اتتنا بايعاد الدواهي واغتمام
واقلاق وإيلام وحزن وافزاع وتحرير المنام[٢٣]

ومولانا قاسم شاه البخاري من خريجي دار العلوم ديو بند الّذين بذلوا جهودهم لنشر الثقافة العربية في كشمير فلم يكن شاعرا مطبوعا إلاّ أنه قرض شعر المناسبات وقام بترجمة قصيدة "ورد المريدين" للشيخ بابا داود الخاكي من الفارسية إلى العربية شعرا وسماها بـ"تاج العارفين". وقدمها بقصيدة له أجدر أن تعد نظما دون شعر فقال في مستهلة:

للأماجد من بخاري التماس للدعاء
فالرجاء من كونه له غافرا[٢٤]

وقد تبع محمّد أمين الواجدي (و١٩٤٠مـ) أستاذه البخاري في نظم شعر المناسبات ومن أهم قصائده مرثيته "العبرات" عند وفاة جواهر لعل نهرو كبير الوزراء الهندي الأسبق فقال في مطلعه:

أفنيت يادهر قرم الهند من حسب
وأدنيتنا غمرات الهم من غضب[٢٥]

وقد فاق جلال الدين الغازي (١٩٥٥-١٩٩٢-) قاشم شاه البخاري ومحمّد أمين الواجدي في مجال الشعر كما وكيفا يتبين من تتبع شعره أنه جدير بأن يسمّي بشاعر عربي في كشمير دون كثير من معاصريه فهو يتقن اللغة العربية ويملك قريحة شعريه فائقة.

فمراثية لاعيان الشيعة وقصائده في المناسبات تشهد بنبوغه فعلى سبيل المثال يقول في مرثية على وفاة سكينة بنت حسين في قصيدة سماه عبرات الميثم:

هي الدنيا تؤول إلى الزوال
فلا تغتر بسرفي الليالي
فإنا قد رأينا فينا
له ملق وفتك بالعوالي
نسُر إن رزقنا الخير فيها
من الجاه وأولاد وما لي[٢٦]

وهناك بعض العلماء الّذين لم يكونوا من الشعراء العربية

فمنهم من نظم قصيدة لشغفه باللغة العربية مثل مولانا غلام حسين القاضي وشمس الدين غمكين الأندرابي. فقد جعل القاضي قصيدته كمقدمة لكتابه باللغة الأردية "بديع النخبة في توضيح قيام الجمعة" فقال في مستهلها:

نحمدك يا ذا لجود من لا أمثال له
هو موجد الكائنات من العدم
والصلوة والسلام على رسوله الكريم
قرشي الابطحى الهاشمي الرحم[٢٧]

ونظم سيد شمس الدين غمكين الرتنفوري قصيدة "نور الأزهر" في مدح النبي غير أنّ تعبيره لم تسلم من العجمة .

يتبين من هذا التقديم أن شعراء كشمير عادة من المتصوفين والعلماء. ولم تنجب كشيمر شاعرا متفانيا لقرض الشعر العربي مثل غلام علي آزاد البلغرامي الهندي فعدد الشعراء الذين لهم دواوين عربية ضئيل. ربّما كان سبب النظم عند كثير مظاهرة مقدرتهم على قرض الشعرالعربي.

ومن أهم سمات الشعر العربي في كشمير أن أكثرة اجدر أن يسمى بالنظم دون الشعر فهو خال من العواطف الأصيلة التي هي روح الشعر فهو شعر القشور اللهم إلاّ بعض المراثي أو بعض المدائح النبوية التي تتدفق بالعواطف.

والشعر العربي قبل القرن العشرين أقرب إلى الشعر الفارسي تعبيرا واطارًا، وهذا لأن حظه الأكبر ينتمي إلى العلماء أو المتصوفين الذين قرضوا الشعر العربي عفوا وإلاّ كان أكثر شعرهم باللغة الفارسية فتسربت التعبيرات الفارسية أو المحلية إلى تعبيرهم العربي في الشعر. وأمّا الانتاج العربي في الشعر خلال القرن العشرين فهو أقرب إلى التعبير العربي الصميم وهذا لأنّه ينتمي إلى العلماء اللذين لهم إلمام بمصادر الشعر العربي القديم كالمعلقات السبع والمفضليات وحماسة ابي تمام فإذا قاموا بقرض الشعر فاصبحو يحاكون الشعر العربي في جميع خصائصه وأغراضه ومعانيه رغما من أن بعض المعاني والظواهر غريبة في هذه المنطقة وهو السبب أن آثار المحلية تتلاشي في هذا الشعر فيتوهم القاري أحيانًا حين يقرأ شعرهم أنه شعر العرب وعلى هذا المبدأ يمكن أن يقال أن الشعر

العربي في كشمير على قسمين:

القسم القديم الّذي كان تعبيره أقرب إلى التعبير الفارسي والقسم الجديد الّذي استلهم فيه الشعراء بالتعير العربي الصميم وهذا لأنه ينتمي إلى العلماء الذين لهم المام بمصادر الشعر العربي.

ومن السمات البارزة لشعر هذه البقعة ايضا التناص القرآني فهو ظاهرة عامة عند الشعراء خارج البلاد العربية فيكون لغتهم مستوحاة بالتعبيرات القرآنية.

وأمّا موضوعات الشعر فلم يتعد الشاعر قبل القرن العشرين الموضوعات الدينية أو الصوفية وأما القرن العشرين فنرى الشاعر الكشميري يعالج الموضوعات السياسية فللشاعر الكشميري الفذ أنور شاه الكشميري بعض المحاولات بهذا الصدد. نرى آثار الشعر التعليمي عند بعض الشعراء الأقدمين والجدد. فالقصائد "الانصاف في بيان طريقه النجاة" لحبيب الله الحبي و "نظام المآرب" لمصطفى خان بختور و"ضرب الخاتم على حدوث العالم" لأنور شاه الكشميري من هذا الطراز. ربما لا نبالغ اذا قلنا إن الشعراء الكشمريين سبقوا شعراء شبة القارة الهندية في هذه المجال.

الحواشي

١. الأوراد الفتحية، سيد علي الهمداني

٢. كشمير مين عربي شعر وادب كي تاريخ، محمد فاروق بخاري، سرينغر ١٩٩٣م، ص ٧١

٣. معازي النبي، شيخ يعقوب الصرفي، مخطوط تحت الرقم ١٧٤٨، مكتبة البحث

جاموو کشمیر، حضرتبل
۴. فارسي منظومات، شیخ یعقوب الصرفي، مخطوط تحت الرقم ۱۴۷، مکتبة البحث جاموو کشمیر، حضرتبل
۵. جامع الکمالات حضرت ایشان شیخ یعقوب صرفي، شخصیت وفن، ص ۳۰۱، سرینگر ۱۹۹۵
۶. کشمیر مین عربی شعر وادب کي تاریخ، ص ۸۳
۷. احوال حضرت ایشان، حبیب الله النوشهري، مخطوط تحت الرقم A۲۱
۸. کشمیر مین عربی شعر وادب کي تاریخ، ص ۷۹
۹. الانصاف في بیان طریقة النجاة، حبیب الله النوشهري، مخطوط تحت الرقم A۲۱
۱۰. علماء کشمیر کا شاندار ماضي، محمد فاروق بخاري، ص ۲۴، سرینگر ۱۴ء۲۰۱۳
۱۱. دیوان "کنز الله"، شاه محمد البدخشي، مخطوط تحت الرقم، مکتبة البحث جاموو کشمیر، حضرتبل
۱۲. بنج کنج، عبد الغفور الشوبیاني، مخطوط تحت الرقم ۸۳۰ مکتبة البحث جاموو کشمیر، حضرتبل
۱۳. حسن العزیز، اشرف علي التهانوي، ص ۱۵۰ نقلا من کشمیر مین عربی شعر وادب کي تاریخ
۱۴. ظفر اللاضي بما یجب علی القاضي، نواب صدیق حسن خان، ص، ۴۱ مطبع صدیق، بهوبال ۱۲۹۴ه
۱۵. کشمیر مین عربی شعر وادب کي تاریخ، ص ۹۹
۱۶. نفس المصدر، ص ۱۰۴
۱۷. مجلة الدراسات العربیة، العدد ۲۰۱۱، ۸م، ص ۶۱-۶۳، مقالة "مصطفی

حنان الكشميري "لمحمد يوسف الحسني

١٨. نفس المصدر، ص٦٦

١٩. نفس المصدر، ص٦٧

٢٠. أماثل كشمير، محمد مظفر حسين الندوي ص٥-٢٧٤، سري نجر ٢٠٠٤

٢١. کشمیر مین عربی شعر وادب کی تاریخ، ١٠٦-١٢٦

٢٢. المصدر نفسه، ص١٣٠

٢٣. مجلة الدراسات العربية، العدد ٧، ٢٠٠٩م، مقالة سيد مير كشاه الأندرابي لمحمد مظفر حسين الندوي

٢٤. مساهمة أهل كشمير في اللغة العربية والأدب العربي ، الجزء الثاني، محمد مظفر الندوي، ص٣٢٧، سرينغر

٢٥. المصدر نفسه، ص٣٣٩

٢٦. نفس المصدر، ص٢٨٣

٢٧. نفس المصدر، ص٣٢٢

المدح عند حسان بن ثابت و تأثيره في شعر شمس الدين غمغين و المفتي قوام الدين

الدكتور سيد عبد المجيد أندرابي

لقد طلع في أفق الهند نجم ساطع في عام ١١١٤ هـ واشتهر بشاه ولي الله المحدث الدهلوي .جميع العلوم التي ظهرت في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة من الثقافة و التاريخ و الدين و السياسة و الفلسفة , كلها ينتمي إلي ذلك العالم الفذ و كان قلبه شغوفا بحب النبي صلي الله عليه و سلم يقول:

إذا مدحت رسول الله يوما فحاذر ان تقصرفى الثناء[١]

فالحذر واجب علي من يمدح رسول الله صلي الله عليه و سلم حتي لا يعتريه نقص في المدح.

باخدا ديوانه باش وباحمد هوش دار [٢]

فالمدائح النبوية فن من فنون الشعر وضعه كعب و حسان بن ثابت رضي الله عنهما . نما وأزدهر حتي أصبح صنفا بذاته. والحق أن الله أعطي النبي منزلة عالية حتى يعجز الإنسان عن مدحه .لذلك قال الشاعر أسد الله خان غالب :

غالب ثناي خواجه به يزدان گذاشتم

كان ذات پاک مرتبه محمد دان است [٣]

كان حسان شاعر المدح في الجاهلية ثم صار شاعر الرسول صلي الله عليه و سلم و شاعر اليمن من بعده و قد عالج موضوعات عصره منها: فخر، حماسة، مدح و غيرها. هذه الموضوعات تحتاج إلي ألفاظ جزلة وأسلوب متين و كان الشعراء في الجاهلية يستعملون

---

١. نور الأظهر: سيد شمس الدين غمغين
٢. ديوان غالب اردو: غالب اكيدمي، دلهي
٣. ديوان غالب فارسي: غالب اكيدمي، دلهي

التراكيب الغريبة و التعبيرات التقليدية و لكن الإسلام هذب شعرهم. لما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المدينة أسلم حسان مع الأنصار ودافع عن النبي و الإسلام بشعره و كان عبد الله بن رواحة وأبو سفيان وعمرو بن العاص قبل الإسلام يهجون الانصار و كان هجاؤهم يؤلم النبي صلي الله عليه وسلم فقال "ما بال أقوام ينصرون الله و رسوله بأسلحتهم فقط ولا بلسانهم". أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فقال حسان: أنا له يا رسول الله فلساني طويل و أخرج لسانه و مده إلي أنفه و قال : والله لو وضعته علي صخر لانشق.

لساني صارم لا عيب فيهو بحري لا تكدره الدلاء

و قد دافع عن الرسول صلي الله عليه و سلم حتي لقب " بشاعر الرسول ".و من أجمل المدائح النبوية قوله :

و أحسن منك لم تر قط عين وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءا من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

و قال في هجاء ابي سفيان:

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء

وقال في نهاء القصيدة:

فإن أبي و والدي و عرضي لعرض محمد منكم وقاء

وكثير من الشعراء في كشمير قد حاولوا محاولات جيدة في المدائح النبوية بالعربية منهم المحدث أنور شاه الكشميري ولكن هذه المحاولات لم تظهر لعامة الناس من تقلبات الدهر. أصدر السيد شمس الدين غمغين ديوانا علي منوال مدائح حسان بن ثابت وسماه "نور الأظهر". و فيه إثنان و سبعون بيتا و هو مرأة صافية للمدائح النبوية و المحاولة الثانية للمفتي قوام الدين و هي قصيدة " كبروية " وسأ ستعرض لها بالإجمال وميزة هذه القصيدة أن صاحبها سار فيها علي طريقة حسان و هؤلاء الشعراء يستحقون التقدير لأن قليلا من شعراء كشمير قالوا الشعر في المدائح النبوية باللغة العربية و الأدب العربي. قال محي الدين ابن عربي و هو شاعر صوفي و مفكر معروف في ديوانه "ترجمان الأشواق":

صح عند الناس أني عاشق غير أن لم يعرفوا عشقي لمن

وقد غير الإسلام تاريخ كشمير عند ما ورد إليها علي بن شهاب الدين الهمداني أول مرة في ٧٧٤ للهجرة ثم أتى إليها مرة

أخرى في عام ٧٨١ للهجرة و معه نخبة من العلماء و المبلغين و أصحاب الحرف و الفنون و كان حاكم كشمير السلطان قطب الدين يعرف منزلته، قدره و أهميته فأيده و حث أصحابه على تبليغ الدين و ترويح الحرف و الصنائع في كشمير.

الجد الأعلي لسادات أندرابي هو من السادات الذين جاؤا مع السيد علي الهمداني إلي كشمير و منهم شمس الدين غمغين المولود في أونتي بورة بلوامة في ١٣ سبتمبر ١٩٠٤ الميلادي, تعلم الإبتدائية علي يد جده عبد الصمد ثم دخل في مكتب عمر شيخ و تعلم عنده القران والحديث و الفقه و الفارسية و ظهرت رغبته في الشعر و ألف عدة كتب في العربية و الفارسية و الكشميرية و يدور حديثنا حول الشعر العربي عنده و من أشهر مؤلفاته "جشمه شيرين" "شمع روشن" "تعويذ القلوب" وغيرها والقصيدة العربية قد طبعت و لكن لم يشتهر أمرها، و فيها اثنان وسبعون بيتا مدح فيها النبي صلي الله عليه وسلم علي غرار حسان بن ثابت. الباحثون في كشمير يمرون بالمؤلفات العربية سريعا دون التعمق مع أن هناك كثيرا من الكتاب لم تصل كتبهم إلي عامة الناس لضعف المواصلات هذا ما لقيته المخطوطات في كشمير و لو تعمقنا قليلا لظهرت نتائج مثبتة كما ظهرت هاتان القصيدتان بجهدي المتواضع, قال غمغين في مطلع القصيدة:

معزك يا بني ذو الـكبرياء فيحسن تحسينا انت وراء

والدين الحق يحي القلوب الميتة. ما أحسن ما قاله كاتب شهير أحمد أمين الدين الحق إكسير يحل في الميت ويحي:

ثم يقول غمغين:

فمن مزمل مدح لتوبتك و من مدثر وصف رداء
نلت رتبة ما لا لأحدلقد صلوا بخلفك أنبياء
وفي غزواتك نصر من الله ومن ايا فتحنا لك لواء
بحسنك أحسن التحسين صنفوا بجيرا، كعب، حسان براء

لذلك اشتهرت قصيدة حسان في العرب والعجم وعملت عمل السيف:

و إن أبي و والدي و عرضي لعرض محمد منكم وقاء
لـساني صارم لا عيب فيه و بحري لا تكدره الدلاء
هجوت مـحمدا فأجبت عنه و عند الله في ذاك الجزاء

و قد نظم شمس هذه القصيدة في مدح رسول الله صلي الله عليه و سلم بوجهة نظر خاص و إن كان يعتريه قصور في تقطيع الشعر إلا أنها تدل علي شغوفة بالعربية و صحة فكره و له كثير من المخطوطات المفقودة إلي الان و قسم اللغة العربية بجامعة كشمير يمكن له أن يعتني بها حتي يقدمها للناس و يكون ذلك زادا للباحثين و يعنيهم في ثروية العطش العلمي و من المؤلفات غير المطبوعة له "رموزات قران" و "شأن ذا القربي" و احوال الصالحين و غيرها.
و توفي غمغين في ٢٧ مايو ١٩٩٨ للميلاد و عمره ست و تسعون سنة و كان آخر ما تلفظ به:

كار من آخر شد كار زمن كاري نشد

والجهد الخطي الثاني في العصر الحديث هو قصيدة "كبروية" للمفتي قوام الدين الأعظم محمد شريف الدين وقد كتب هذه القصيدة في جمادي الثانية سنة ١٣٧٦ هـ وعندي نسخة خطية منها وكتب فيها "أقدم هذه القصيدة إلي السيد محمد يوسف كراله بوري بخالص التقدير وختمها بالتوقيع والقصيدة والقصيدة ليست من المدائح النبوية و لكنها في مناقب الشاه همداني وقد كتب بخط جميل مراعية البحور و الأوزان وفيها البحور والأوزان وفيها أربعة وثلاثون بيتا بأسلوب سهل ومن حيث الفصاحة والبلاغة فيها التشبيب الحسن ومن حيث البدائع ففيها إيجاز فريد بنوعيه:

علي عالي اعلي المـقام إمام الفضل صدر الاحتشام
خليفة مصطفي علما و عملا و تبليغا إلي خاص و عام
هو الهادي إلي دين قويـم بعون المالك الملك الأنام
إمام العارفين شرقا و غربا أمين الشرق في جميع العظام
هو المنعوت في الولاة جمعا عظيم المن في دار العظام
هو الباني لدين الله سعيا سوي السيف و إلقاء السهام[1]

والخلاصة أن الشاعر المذكور قد أحاط يعلي بن شهاب الدين الهمداني الملقب بعلي الثاني و بشخصيته العبقرية و جهوده في سبيل نشر الدين في كشمير , كل ذلك بأسلوب حسن و تعبير جميل و لم الهمداني في التبليغ الذي هو مهمة النبي صلي الله عليه وسلم حتي إنه أرخ تاريخا عندما جاء إلي كشمير في كبر السن حيث كان عمره ستا

[1]. قصيدة كبروية: المفتي قوام الدين، كشمير

و أربعون و الأبيات الأتية تكشف لنا هذه الأمور:

هذا سبط أحمد بن بــتول سبية المرتضي بدر الكرام
دعوت الخلق نحو الحق فضلا جزاك الله خيرا من أنام
و أنت محسن أحسنت للناس نشكرك واجب عمر التمام
هلموا ايها الطلاب حــقا علي باب بآداب الكلام

و تعتبر هذه القصيدة إسهام كبير من المفتي قوام الدين في سبيل ترويج اللغة العربية و الأدب العربي في كشمير . و قد بذلت جهدي في إخراج هاتين القصيدتين و الحق أن هناك مئات من المخطوطات المفقودة حتي الآن و قسم اللغة العربية يمكن له أن يقوم بدور بارز في ترتيب هذه الشذرات و تهذيبها و أنا مستعد للتعاون معهم في هذا المجال.فإذا ظهرت هذه النوادرات فإن ثروتنا العلمية تكون شاهدة أعيان للمتأخرين.

المراجع :

١ . أسرار الأبرار: شيخ داؤد
٢ . آب كوثر: شيخ محمد أكرم، فيروز سنز، باكستان
٣. تاريخ اقوام كشمير منشي محمد الدين فوق، لاهور
٤ . نور الأظهر: السيد شمس الدين غمغين، بلوامةكشمير
٥ . دستور السالكين: علامة داؤد خاكي
٦ . كشمير مين اسلام كي اشاعت: د سيج محمد عارف بخاري
٧ . سير الأولياء: أمير خرد، دلهي
٨ . كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر: إبن خلدون، بيروت ١٩٥٨
٩ . خلاصة المناقب: ملا نور الدين بدخشي، مكتبة جامعة كشمير
١٠ . ديوان حسان بن ثابت
١١ . تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار المعرفة بيروت، لبنان

أدب النضال في الشعر السعودي الحديث

الدكتور عبد الوحيد شيخ•

وقد حكم الاستعمار كثيرا من بلاد العرب والعجم من قبل بريطانيا أو روسيا أو فرنسا، و بلغ نفوذهم إلى معظم البلاد العربية المجاورة لنجد والحجاز، ولكن الله صان بلاد الحرمين الشريفين من سيطرتهم إذ لم يكن للمستعمرين مطامع وأهداف في نجد فهي صحراء ويعيش أهلها في فقر وبؤس من الحياة الضنكة، فينتشر فيها الجهل وأهلها منشغلون في الحروب والقتال فيما بين القبائل المختلفة بينما الاستعمار يوجه عنايته إلى المناطق الخصبة ذات الثروات الزراعية والاقتصادية طمعا للحصول على خيراتها, ولم يكن لمنطقة الحجاز أو نجد حينذاك من هذه الأمور حظ ولا نصيب. فسلمت نجد من أرجاس الاستعمار، ولكن الشعراء السعوديين شاركوا إخوانهم من بلاد أخرى في مهاجمة الاستعمار، وخاصة ما يتعلق بقضية فلسطين، قضية المسلمين الأولى، وقد أصدر بعض الشعراء دواوين مستقلة في قضية فلسطين. وهناك قضايا عربية وأخرى إسلامية مثل أفغانستان والعراق والشيشان والبوسنة والكويت اهتم بها الشعراء، ونددوا بالسياسة الأوروبية والأمريكية على وجه الخصوص.

فهذا النوع من الشعر يختص بالقضايا العربية وبالتنديد بالمستعمرين والتغني بالوحدة العربية ويعتبر هذا الصنف من الموضوعات الجديدة التي شغلت شعراء التجديد في زمان ابتليت فيه الأمة العربية بالاحتلال الأجنبي، فعملوا على جمع الهمم والعزائم لمواجهة أولئك المستعمرين لإجلائهم من أوطان المسلمين ولتحرير جميع البلدان من سيطرتهم.

وقدكان ولا زال لقضية فلسطين مكان الصدارة لاهتمام الشعراء بالقضايا العربية يقول حسن القرشي في قصيدة" اللاجئون":

ألا سوأتاه لما ندعي من الثأر من ذمة من وفاء

• الجامعة الإسلامية للعلوم والتقنية.

نجعجع بالقول في كل حين ويعجزنا الفعل يا للمجون
ونهتف سوف نفك الإسار ونحيي الديار ونحمي الذمار
ولا يتبقى لنا من هتاف سوف أننا يا أخي هازلون
وأنا قد اصطلحتنا خراف وأنا جميعا ضعاف ضعاف[1]

والقرشي أكبر الشعراء الحماسيين الذين عاشوا لقضية فلسطين فهو يرثي القتلى ويحرض الأحياء على أخذ الثأر من العدو الغاشم ويلعن العدو الغاصب وأعوانه:

ملاحم الحرب ميراث لنا أبدا
وسوف نلقي بإسرائيل في سقر[2]

وقضية فلسطين محور الشعر السعودي السياسي المعاصر لذلك فالشعر فيها أكثر من غيرها، فقد أصدر فيها القرشي ديوانين :"لن يضيع الغد" و"فلسطين وكبرياء الجرح"، وأصدر القنديل ديوان"نار" والبواردي ديوان" صفارة الإنذار" وهاشم عبد السلام حافظ ديوان" أغنيات الدم والسلام" وطاهر الزمخشري ديوان "من الخيام"، والدكتور عدنان علي رضا النحوي ديوان "الأرض المباركة" والدكتور زاهر الألمعي ديوان "نزيف الشهداء" وغيرها كثير.

وقد وصف الشعراء الوضع الراهن الذي يعيشه الفلسطينيون فهذا الشاعر محمد هاشم رشيد يقول في قصيدة "على أطلال الماضي":

يا قلب لا تبك التراث الفاني فالدمع لايروي صدى الضمآن
ولنحي أحرارا فحسبك ذلة سفح المدامع والخطوب روان[3]

ويتذكر الشاعر تاريخ الأمة المشرق وعهد المسلمين الزاهر ويخاطب الأمة بأن تفيق من نومها العميق وتقيم مجدها الذي بناه محمد صلى الله عليه وسلم. يقول الشاعر:

نمنا وقام الغرب في آثارنا ينساب تحت الليل كالثعبان
وبذلك فقدنا مجدنا وفخرنا وابتلينا بالأهوال والأشجان

وهنا يتفاءل الشاعر بأن الأمة ستفيق وتعيد ماضيها المجيد وسوف يخضع العالم للوائنا في شريعة القرآن. ولكن لا بد للأمة أن تبذل جهدها لتحقيق أهدافها وإلا فالأولى لها الموت من أن تعيش حياة الذل والهوان.

فإلى الأمام إلى الإمام فحسبنا ما ضاع من ملك ومن سلطان
لنكن كما كان الجدود أعزة تعنو الوجوه لنا بكل مكان
أو فلنمت شهداء إن يد الردى أحنى علينا من يد العدوان
فالموت أجدر تحت أفياء الظبي من أن نعيش بذلة وهوان[٤]

وينقلب الفرح والسرور بيوم العيد عند الشاعر إلى الحزن والاحتراق عند ما يذكر حال أمته حيث وطأتها أقدام العدو الغاشم في أرضها ومعقل ديارها، ويتطرق الشاعر مع القدس إلى قضية لبنان وباكستان وآسيا الصغرى وإلى المسلمين عامة في العالم، يقول الشاعر من قصيدة "في موكب الأفراح".[٥]

قالوا: وهل للعيد من معنى وقد عاث الدخيل ولج في الإفساد؟
فالقدس ترزح تحت وطأة غاصب قذر يدنس معقل الآساد
وعلى ثرى لبنان مأتم أمة ثكلى تحطمها رحى الأحقاد
وبقلب باكستان جرح غائر ما زال ينزف في ضلوع الضاد
وبآسيا الصغرى شعوب مزقت بالمخلب القاني وبالإلحاد

وهنا يغلب الرجاء على اليأس فإن المسلمين لو اتحدوا واتفقوا فيما بينهم فإنهم يصيرون أقوى الأمم على وجه الأرض فلا يتعرض لحقوقهم عدو ولا يطمع في إلحاق الضرر بهم ظالم.

لما ادعت إسرائيل بأنها ستطلق القنبلة الذرية انبرى الشاعر إبراهيم الدامغ بالهجوم عليها:

أطلقيها في فضاء الغدر نارا أطلقيها
واستبدي يا جذور البغي حمقا واقذ فيها
وتواري في رداء الخزي عارا واكتبيها
وتحدي راية السلم المنادي واضربيها[٦]

ويستنطق الشاعر صلاح الدين الأيوبي بأن يحدثه كيف وحد جيشه عند ما انتصر على اليهود وحرر القدس من أرجاسهم :

صلاح الدين حدث كيف كانت جيوشـك فـي بشائر تدق[٧]

ويقول عبد الغني مأمون بري في قصيدة " المجد الضائع" بعد ما ذكر وقائع العرب وبطولاتهم، وأشار إلى بدر وأحد، والقادسية التي أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا يتساءل فيقول:

فمن لي بمن يسعى بجيش عرمرم
يهدد هذا الغرب بالصارم الهندي

ويفهم ذا الوغد الذي هو كامن
على الضغن أن العرب من حجر صلد
فلسطين يا مهد النبيين إنني
لأشكو ولكن الشكاية لا تجدي
لأني أرى دين السلام مضيعا
بزخرفة قد أذبلت نضرة الخد[٨]

والشاعر الدكتور عدنان علي رضا النحوي أصله من فلسطين له دواوين كثيرة، خصّ شعره على تحريض المسلمين على التمسك بالأخلاق الفاضلة وعلى الجهاد لتحرير القدس يقول في قصيدة "فلسطين في ظلال القرآن"[٩] بعد ما تحدث عن فضل الجهاد وأنه يمنح للشهيد حياة وجنة ورضا ويقول:

لست من يندب الشهيد ولكن هو حق أن نندب الأحياء

ثم يذكر الشاعر بأنه لا يبكي على تراب القدس بل يندب على فقد العقيدة ، فانحطت منزلة المسلمين واستغرب الشاعر بتمزق الملة إلى فرق وأحزاب بعد أن كانت يدا واحدة ثم يتوجه الشاعر بخطابه إلى الأمة ويذكرها بفضائلها وأنها مهبط الوحي ومسكن الأنبياء ومسرى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم , ويشير الشاعر إلى كثرة الشهداء في أرض فلسطين، ولا بأس فهو الطريق الموصل لنيل المراد إذا أحبت أمة البقاء والحياة.

وكان العرب في صدر الإسلام وفي القرون المفضلة لا يستسيغون الحياة مع الذل والهوان ولكن المسلمين الآن يعيشون حياة الذل فإن هم أضاعوا الأمس بلاد الأندلس فإنهم ما زالوا يفقدون قبلتهم الأولى .

فهذا الجرح أنكى وأشد، يقول الشاعر عثمان المحارب:

أن تكن ضاعت بأمس قرطبة فجراء اليوم أنكى ألما
هذه القدس غدت مستلبه أسلمتها كف أبطال الحمى
يوشك الشاعر يهجو نسبه بين الساحات الأباة الحكما[١٠]

وما أصاب المسلمين في الشيشان على يد قوات شيوعية من روسيا من قتل وإحراق وتشريد وحبس وتدمير قد أثار غضب الشعراء فنظموا القصائد في ذم العدو، يقول الشاعر سعد الرفاعي في قصيدة "نزيف الحرج" وبه سمى ديوانه:

نزيف الجرح في الشيشان بحر ونار الحرب ويلات وذعر
وصوت في سماء الحرب يعلو أغيثوا مسلما يغشاه قهر[١١]

وهي قصيدة طويلة تشتمل على ثلاثة وأربعين بيتا ذكر فيها الشاعر شيئا من تأريخ الإسلام المشرق ومجد المسلمين وعزهم ويستنجد من الأمة المسلمة ولكن مصيبتنا اليوم أننا في سبات طويل، وأننا ملنا إلى صداقة الأعداء واعتمدنا على المواثيق والعهود معهم ولكن العدو تمادى عند ما رآنا في غفلة عن أمرنا.

وكذا ينادي الشاعر حسين الكريري من يغيثه ويعينه.

يا عباد الله هل من مغيث فسراييفو تكاد تضيع
وكذا الشيشان تشكو بلاء ضرها قتل وثلج وجوع[١٢]

وللشاعر قصيدة بعنوان" أمة الإسلام" وهي جميلة جدا_فقد فازت هذه القصيدة بالجائزة الثانية في إحدى مسابقات نادى جازان الأدبي، ولجمال هذه القصيدة وسلاستها فإني أحب أن أنقل بعض الأبيات منها يقول الشاعر:

أمـــــة الإســـــلام هـــــل كلـــت ســـيوف المســـلمينا
أم تـــــرى لانـــــت فلـــــم تفـــــر رؤوس الغاصـــــبينا
أم هـــم الشـــجعان غـــابوا فـــــي رعيـــــل الأولينـــــا
أم لقينـــــا العـــــيش رغـــــدا فاســـــــتكنا ورضـــــــينا
واستســـغنا عيشـــة الـــذل فلـــم نرفـــع جبينـــا[١٣]

وهي قصيدة طويلة اكتفيت منها بهذا القدر فما أجمل هذا النفس الطويل لدى الشاعر وقدرته الفائقة حيث لا تستعصيه القافية، ويذكرنا الشاعر بتأريخنا المشرق وبأبطال المسلمين ويذمّ الاستعمار وأعوانه.

وعبد الرحمن العشماوي قد احترق قلبه بمأساة المسلمين في فلسطين وباحتلال العراق للكويت، فجعل الهدف الرئيسي لشاعريته إيقاظ المسلمين لاسترداد المسجد الأقصى وتحريضهم على جهاد العدو، فديوانه "يا أمة الإسلام" مليء بهذا الشعور فهو ينادي الأمة "يا أمة الإسلام" فليست قضية فلسطين للعرب فقط بل هي قضية الأمة الإسلامية جمعاء ، يقول الشاعر:

بني الإسلام، أمتكم تنادي وتبحث عن ميادين اتفاق
ألستم تسمعون صراخ طفل غدا في القدس مشدود الوثاق

ألستم تسمعون أنين ثكلى تنفس عنه بالدمع المراق[١٤]

وقد صار القدس حكاية تحكي حنينه وكآبته للعالم كله، والعدو الذي احتله يشبه الذئب الذي لا يرحم ضعيفا ولا يعرف حرمة لأحد، ولا يعرف إلا البطش والافتراس:

وغـــدا القـــدس صـــفحة لحكايـــــــا مترجمـــــــة
لا تـــرى فـــوق أرضـــه غيـــر ذئـــب وجمجمـــة[١٥]

ثم يصور الشاعر خوف الأمة المسلمة وأنها تتشجع على الإقدام إذا قامت في وجه الغاصب مع أنهم عصابة قليلة.

آه مـن خـوف أمـة مـن مـلاقاة شـرذمه

وهنا يتذكر الشاعر تاريخ الإسلام الذي يمتلئ ببطولات وأبطال قد عجز التاريخ أن يأتي لهم بمثال في الشجاعة، والقوة والإخلاص. فيتساءل الشاعر:

أيـــن ســـعد وخالـــد والمثنـــى وعكرمـــه
أيـن مـن صـافحوا العـلا بالأيـدي المكرمـة[١٦]

وهكذا يتعلق الرجاء بتوحيد الأمة في صف واحد، فإذا تم ذلك فإنه يرجى لها النجاة والفوز والسعادة في الدنيا بين الأمم والفوز في الآخرة .

ومما تقدم يتبين أن الشعراء السعوديين في قضية فلسطين يدافعون عن الكرامة والإباء والهوية الإسلامية والعربية وعن المقدسات يدافعون عن ذلك كله قبل الدفاع عن المال والتراب محافظين على القيم والمثل والأمجاد ومستنكرين لهذه القضية وحاثين على إيجاد الحل الذي يكمن في الحرب والوحدة العربية والرجوع إلى دين الإسلام والتمسك بتعاليمه السمحة واستغلال سلاح النفط بمنع تصديره إلى الدول المتعاونة مع العدو.

ومن القضايا المعاصرة التي لقيت اهتماما كبيرا من قبل الشعراء في المملكة حرب الخليج في عام ١٤١١هـ-١٩٩١م، وقد أفرد لها الشعراء السعوديون مع غيرهم من شعراء العرب جانبا كبيرا من أشعارهم ولا عجب فإنهم من المتضررين بهذه الحرب مباشرة. وقد قام النادي الأدبي بالقصيم بجمع أكثر ما قيل في هذه الحرب وطبعته في ديوان"عندما تلتهب القوافي" كما قام محمد سلطان العتيبي بجمع كثير من قصائد هذه الأزمة في كتاب يجمع بين

القصائد الفصيحة والنبطية سماه"وطن وقافية". وللدكتور محمد العيد الخطراوي ديوان مستقل لهذه القضية سماه " تأويل ما حدث" من إصدارات النادي الأدبي بالمدينة المنورة, و مما قيل في هذه المناسبة. يقول الأستاذ الأديب عبد الرحمن بن عبد الله الملق من شعراء مدينة حائل:

جاء الشقيق إلى الشقيق يزوره بجيوشه من رقده النوام
من هولها شعب الكويت تساءلوا ماذا جرى يا أمة الإسلام
فأجابهم صوت المدافع هادرا تلكم حقوق الجار والأرحام[١٧]

ثم يبين الشاعر حال الشعب الكويتي ويصور خوفهم وفزعهم من مهاجمة العدو، وأنهم فروا من وطنهم بأهلهم خوفا من بطش العدو.

كل يحضر للهروب بنفسه وبأهله من مأزق الألغام
نحو الحدود تسابقوا وتدافعوا ما بين متهوك وطفل ظام

وهذه الكارثة التي أصابت أهل الكويت لم تكن من أجنبي، بل من مسلم عربي مجاور ،يقول الشاعر:

أحدى يدي تمكنت من أختها
فتحطمت من قسوة الآلام

وهنا يتوجه الشاعر إلى الشعب الكويتي بخطاب لين وأنهم الجيران والأشقاء، وليسوا كعامة الجيران بل مثل الأهل والأعمام وحكام الكويت رمز التواضع وبناة حضارة ودعاة سلم.

شعب الكويت صديقنا وشقيقنا جيراننا كالأهل والأعمام
حكامهم رمز التواضع والحجا لم يثنهم عن ذا المقام السامي
كانوا وما زالوا بناة حضارة ودعاة سلم في مدى الأزمان

وقد كان للعاهل السعودي الراحل فهد بن عبد العزيز فضل في الدفاع عن الكويت وأهلها فآوى الهاربين وأجار المشردين ونصر المقاومين وهيأ الرأي العام في العالم ضد هذه الجريمة التي ارتكبها صدام حسين.

غزو الكويت جريمة مرفوضة الفهد قاومه بكل مقام
هز الضمير العالمي بأسره هز الشعوب وسائر الحكام

ثم يبشر الشاعر حكام الكويت بالنصر العاجل والعودة إلى بلادهم في عز وتمكين . ويدعو إلى التضامن الإسلامي وأن

المسلمين يجب أن يتحدوا ويتوجهوا بقوتهم إلى القدس لتحرير المسجد الأقصى مسرى ومعراج النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدوسه اليهود بأخبث الأقدام وعاثوا فيه الفساد من القتل والدمار والتشريد ويقاومهم أطفال المسلمين بالحجارة.

لله أطفال الحجارة إنهم هزوا قلاع الغدر والأثام
تأييدهم حق وفرض واجب بالروح والأموال والأقلام
حتى يسودوا أرضهم وبلادهم رغم العدو بعزة وسلام

وقد صور الشاعر في هذه القصيدة الواقع بما حدث فيه من أحداث مؤلمة، وبين الرأي الصحيح في هذه الكارثة بأسلوب رصين وعبارة جزلة تتدفق فيها عاطفة الشاعر الصادقة. وهذه المشاركة من هؤلاء الشعراء تدل على تفهمهم لتلك القضايا وإدراكهم لعمق تأثيرها في حياة المسلمين بين الأمم, هذه العواطف الجميلة وذلك الإحساس المرهف كل ذلك يكتب لهذه النخبة من الشعراء وقد خلد سعيهم هذا ذكرهم في صفحة التاريخ.

والخلاصة أن الشعراء السعوديين قد ساهموا في أدب النضال بألسنتهم وأقلامهم، ولم يفرقوا في هذا الشأن بين المسلمين وغيرهم من سائر الملل ، فكلهم ظلمة وغواة حيث تعدوا على غيرهم ظلما وجورا، وقاموا تيارهم بأصدق تعبير وأخلص نية.

الحواشي:

١. بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين ، ٢/٤٦١
٢. الحامد، د/عبد الله: الشعر الحديث في المملكة ص ٢٣٨
٣. الأعمال الشعرية الكاملة ص١١٧
٤. المصدر السابق ص ١٢١
٥. المصدر السابق نفسه ص١٥٨
٦. الخواجه: دريد يحيى: سوق الأدب والنقد في القصيم ص ١٦٨
٧. المصدر السابق ص ١٦٩
٨. ديوان: نفحات دار الهجرة ص ١٠٩ -١٩٨٧م. ص ١١٩
٩. ديوان " الأرض المباركة"، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط٥/١٤٠٧هـ
١٠. ديوان "بين فجر وغسق" ص٥٥
١١. ديوان "نزيف الجرح" ص ٤٧
١٢. عزف على أوتار الحب من قصيدة "سراييفو" ص٤٧

١٣. ديوان " عزف على أوتار الحب" ص ٤١-٤٣
١٤. ديوان" يا أمة الإسلام" قصيدة "متى يا فجر؟" ص ٩٦
١٥. المصدر السابق نفسه من قصيدة " عندما تتحرك الدموع" ص١٠٢
١٦. المصدر السابق نفسه ص ١٠٣
١٧. الخليف: خليف بن سعد: شعراء سعوديون ٣/١١١ وما بعدها

الموازنة بين السيرة الذاتية والسيرة الغيريّة

طارق أحمد خان•

السيرة في اللغة هي الطريقة أو السنّة والهيئة فكلمة السيرة تعني حكاية عمر، كما ورد في القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى: "قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى"(١). أي سنتها وهيأتها. وسيّر سيرة: حدّث أحاديث الأوائل، وسار الكلام في الناس: شاع وعم، ويُقال هذا مثل سائر والسيرة هي: الحالة الّتي يكون عليها الإنسان وغيره غريز أو مكتسبًا. وقال خالد بن زهير:

فــلا تغضــبن مــن ســنّة أنــت ســرتها
فــأول راضــي ســنّة مــن يســيرها

والسيرة إصطلاحا تعني: "فن ترجمة الحياة لشخص ما"(٢). أو نقول: إن السيرة حياة إنسان. والسيرة من حيث الفن فيقول إحسان عبّاس: "إنّ السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لانها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري"(٣).

وقسّم النقاد السيرة إلى صنفين ذاتية يترجم فيها كاتب حياته، ويكشف لقرائه ما خفى من أمور تتعلق بمسيرته وغيريّة يتحدث فيها الأديب عن شخص آخر. والمقابل الإنجليزي للسيرة الغيريّة هو Biography، وهو مشتق من كلمتين يونانيتين تعنيان: وصف حياة، فـ Bios تعني: حياة و Graphein تعني: يصف. إن النقد العربي الحديث قد استوعب التفرقة بين المصطلحين الغربيين المركّبين تركيبا مزجيا، فحكاهما لفظًا وقال السيرة الغيريّة لـِ Biography والسيرة الذاتية لـِ Autography.

مفهوم السيرة الذاتية:

• الباحث في الدكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر.

السيرة الذاتية نوع من السيرة تعني حكاية عمر، أما الذاتية فكلمة الذات تعني النفس والشخص كما ورد في القرآن قال الله تعالى "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(٤). فمعنى ذات الصدر سريرة الإنسان، أي باطن النفس وخفاياها.

السيرة الذاتية هي تاريخ حياة إنسان كتبها بنفسه، وتؤكد على حياة كاتبها الخاصة، كما تستبطن أفكاره، ودوافعه ومشاعره الذاتية. ولقد عرّف باحثوا العرب والغرب السيرة الذاتية، وأوّل ما يبدأ قدّمه (فيلب لوجون) الّذي يرى أنها "حكي استعاديّ نثريّ يقوم به شخص واقعيّ عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة، وعلى تاريخ شخصيّته"(٥). إلاّ أنّه يعود عن هذا التعريف محاولاً إيجاد حدّ جديدلها "بواسطة سلسلات من التعارضات بين مختلف النصوص المقترحة للقراءة".(٦)

ويرى عبد العزيز شرف أنّ السيرة الذاتية "تعني حرفيًّا ترجمة حياة إنسان كما يراها هو"(٧). وأشار يحيى إبراهيم عبد الدايم إلى النقاد الّذين عدّو السيرة الذاتية "مصدرًا للمعلومات عن نفسية الإنسان، وكونها تقدّم حقائق هامّة لها قيمتها عن تاريخ الإنسان"(٨). ويرى يمنى العيد أنّ السيرة الذاتية "عمل أدبي قد يكون رواية، أو قصيدة، أو مقالة فلسفية، يعرض فيها المؤلف أفكاره، ويصوّر إحساساته بشكل ضمني أو صريح"(٩). ويذكر محمّد التونجي أنّ السيرة الذاتية "سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حاله، وما يعترض حاله من معضلات وشدائد، محاولات تتابع الأحداث زمنيا وأهميّة وهو في السيرة الذاتية لا يذكر إلاّ ما يشاء ذكره عن حياته، وما يريد أن يوضعه عن الناس حوله"(١٠). ويقول عبد المحسن طه بدر: "الترجمة الذاتية، تحاول تفسير تاريخ حياة مؤلفها في رحلة زمنية محدودة، وتحتفظ بالترتيب الزمني للأحداث كما وقعت لصاحبها، ولا يقتصر المؤلف على سرد الأحداث ولكنّه يقف فيها موقف الدارس المحلّل، كما أنّ الرابطة الّتي تربط بين أحداثها مجرد رابطة سطحية تتمثل في وقوع الأحداث بعينها في زمن محدّد". (١١)

وعرّف أنيس المقدسي السيرة الذاتية فيقول "بأنها نوع من

الأدب يجمع بين التحرّي التاريخي، والامتاع القصصي ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصه"[١٢]. ويقول محمّد عبد الغني حسن "الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره ويسرد أعماله وآثاره. ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظيم وتضؤل تبعا لأهميته وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالبا"[١٣]. ويقول احسان عبّاس إنّ السيرة الذاتية "هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني فإنه لا بد أن يكتبها". [١٤]

فالسيرة الذاتية فن يملك ملامح تجعله منضويا تحت لواء الفنون الأدبيّة، ومن أهم تلك الملامح "أن يكون لها بناء مرسوم، واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات الّتي مرّت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن ينحي جانبًا كثيرا من التفصيلات والدقائق الّتي استعادتها ذاكرته وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون لديه من يوميات ومدوّنات تعينه على تمثّل الحقيقة الماضية".[١٥]

مفهوم السيرة الغيرية:

السيرة الغيرية تكتب عن شخص بارز ومبدع في أي حقل من الحقول الأدبية والفنية والفكريّة والسياسية والعلمية وما إلى ذلك. يقول عبد العزيز شرف "السيرة الذاتية نقل مباشر أما السيرة الغيريّة فانها نقل عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق"[١٦]. ويقول زكريا إبراهيم أنّ السيرة الغيريّة "هي بحث عن الحقيقة في حياة الإنسان فذّ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريّته من ظروف حياته الّتي عاشها، والأحداث الّتي واجهها في محيطه والأثر الّذي خلّفه في جيله"[١٧]. كما يقول احسان عباس "الترجمة الذاتية نقل مباشر أما الترجمة الغيريّة. أي ترجمة حياة الآخرين. فانها نقل عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق"[١٨]. ويقول أنيس المقدسي: "سيرة ذاتية تدور على حياة كاتبها وسيرة موضوعية أو غيريّة تدور حول شخص آخر". [١٩]

دراسة مقارنة بين السيرة الذاتية والسيرة الغيريّة

وأما ما يتعلق بمسألة تمييز السيرة الذاتية عن السيرية الغيريّة، فعلى الرغم من العلاقة الواضحة بين النوعين في انهما يشتركان في التعبير عن الذات الإنسانية بطريقة مباشرة وهدفها ابراز تجارب شخصية ما كان لها دور فاعل في الحياة سواء أكان ذلك على الصعيد الاجتماعتي أم السياسي أم الأدبي، وتتبع تاريخ الشخصية في تطورها الخلقي والعقلي والعاطفي. إلاّ أن هذا لا يعني التطابق التام بين النوعين. وقد اختلف الباحثون في هذا الموضوع، ففريق يرى أنه هناك لا فرق بين النوعين في الغاية والمضمون والشكل، إلاّ أن أحدهما يكتب بصيغة المتكلم وهي السيرة الذاتية والآخر يكتب بصيغة الغائب وكلاهما فن لا علم. ولكن نجد أيضًا أنّ معظم الباحثين أجمعوا على أنّ أهم فرق بينهما، هو أن السيرة الذاتية يتم فيها التطابق بين السارد والشخصية الرئيسة والمبدع أما السيرة الغيريّة فلا يمكن أن يتطابق فيها المبدع مع الشخصية الرئيسية.

إذا نتكلم عن رسم الشخصية فيقول ماهر حسين فهمي "كاتب السيرة الذاتية يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج، بمعنى أنّه يقدم الانفعالات ثمّ أثرها الخارجي، أو بروزها في شكل أحداث، أما كاتب السيرة الغيريّة فليس أمامه إلاّ أحداث في أكثر الأحيان منها ما يتعمّق إلى الداخل أو يقدم الشخصية من الخارج إلى الداخل"[٢٠]. وكذلك يقول عدنان حسين أحمد: "لا بد لنا من التفريق بين السيرة الذاتية الّتي يتطابق فيها المؤلف والشخصية والسارد إلى الدرجة الّتي يمكن فهيا تذييل النص بعبارة أنا الموقع أدناه وبين السيرة الغيريّة الّتي تكتب عن شخص بارز ومبدع في أي حقل من الحقول الأدبيّة والفنية والفكرية والسياسية والعلمية وما إلى ذلك فالسيرة الذاتية لا يخشى عليها من التداخل مع السيرة الغيريّة حسبه فأنّها يخشى عليها من الخلط بينها وبين التاريخ والمذكرات واليوميات والرواية". [٢١]

فنقول ليس المقصود من السيرة الذاتية أن يتتبع الكاتب تاريخ حياته وحسب ... ولكن الأخطر هو أن يتعمّق أحاسيسه ويسجّل لنا نبضات قلبه وهذا ما لا يقوى عليه كاتب السيرة الغيريّة. وتختلف

السيرة الذاتية عن الغيريّة في أن نهايتها في الأغلب مفتوحة وتكون شبه مغلقة عندما تختص بمدة محدودة من عمر كاتبها. وفي حين تكون أغلب السيرة الغيريّة ذات نهاية مغلقة وتكون مفتوحة أحيانًا عندما يكون المترجم له على قيد الحياة. ويقول إبراهيم عبد الدائم: "إنّ السيرة الذاتية والغيريّة تختلفان في تناول الحقائق فكاتب السيرة الغيريّة، يحسب المواقف أو الواقعة بطريقة مختلفة، بحسب استجابتة للواقعة، حتى لو كان حاضرا حدوثها، لأنه يستجيب لها استجابة تختلف عن استجابات الآخرين، تبعا لتكوينه النفسي، وليس هناك تكيف منه مع موضوعه كما هي الحال لدى كاتب الترجمة الذاتية".(٢٢)

ويرى احسان عباس: "الصفات تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي نفس الصفات الّتي تجعل السيرة الغيرية عظيمة: وفي رأس تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة موضوعيًا، يلمح بسريعة ويفهم بأحكام ويلم الحقائق، ويحكم عليها، ويمزجها مزجًا متعادلاً منسجمًا، ويصبغها بأسلوبه. أما كاتب السيرة الذاتية فأنه ذاقي قبل كل شيئ، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته، ومترجم غيره يقف موقف الشاهد لا القاضي أما مترجم نفسه فانه يجمع بين الصفتين. فليس للأول أن يحمل فكرة مقرّرة سابقة عمّن يترجم له، وإنما من واجبه أن ينقل صورته إلى الخلف، كما كانت تلك الصورة معروفة بين معاصريه. ومثل هذا التقييد لا يمكن فرضه على من يترجم لنفسه فما يقوله يقبل على وجهه. ونتيجة لهذه الفروق تنبع السيرة الذاتية من الداخل، متجهة نحو الخارج، على عكس الاتجاه الّذي تمشي فيه السيرة غير الذاتية"(٢٣). ويقول تهاني عبد الفتاح: "كاتب السيرة الذاتية يصوّر لنا مادّة منتزعة من ذاته، لذلك فأنّه يتعامل معها بحنوّ وعطف، أما كاتب السيرة الغيريّة فانه يستقى مادته من العالم المحيط، لذلك فانه يقف منها موقف الشاهد، أما كاتب السيرة الذاتية فعليه أن يؤدي دور الشاهد والقاضي معًا". (٢٤)

فنقول السيرة الذاتية والسيرة الغيريّة إن كلامنهما، تمدّنا سيرة حياة الرجل العبقري وكلتاهما تطلعنا عن التطور الخلقي

والعقلي والعاطفي وكلاهما يشترك في محاولة الإعادة والخلق لجزء من الوجود الإنسان الفردي ويختلفان في تناول الحقائق الّتي يجدر بكاتب كل منهما أن يسجلها. فنقول في الأخيرة "إنّ حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتبه عنه". [٢٥]

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم، طه: ٢١.
٢. مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص: ١١٥.
٣. إحسان عباس: فن السيرة، دار بيروت، ص: ٩٠.
٤. القرآن الكريم: التغابن: ٤.
٥. لوجون فيلب: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ص: ٨.
٦. المرجع السابق، ص: ٢٢.
٧. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، إشراف محمود علي مكي مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ١٩٩٢، ص: ٢٧.
٨. يحيى إبراهيم عبد الدائم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: "و"
٩. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار النشر المصرية، ص: ١٠١-١٠٢.

١٠. محمّد التونجي: المعجم المفصل للأدب، جلد ٢، دار الكتب المصرية، بيروت لبنان ١٩٩٣م، ص: ٥٣٦.
١١. عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة، دار المعارف، بمصر الطبعة الخامسة، ص: ٣٠٤.
١٢. أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م، ص: ٥٤٧.
١٣. محمّد عبد الفني حسن: التراجم والسير، دار المعارف الطبعة الثالثة.
١٤. إحسان عباس: فن السيرة، ص: ١٠٢.
١٥. يحيى إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: ١.
١٦. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، ص: ٦.
١٧. ذكريا إبراهيم: مشكلة الحياة، مكتبة مصر، ص: ٢٠.
١٨. إحسان عباس: فن السيرة، ص: ١١٢.

١٩. أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها، ص: ٥٥١.
٢٠. ماهر حسن فهمي: السيرة تاريخ وفن، ص: ٢٥٣.
٢١. عدنان حسين أحمد: العرب الأسبوعية، رواية السيرة الذاتية عصن مطعم بشجرة غريبة نموذجا.
٢٢. يحيى إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: ٢٦.
٢٣. احسان عباس: فن السيرة، ص: ١١٢.
٢٤. تهافي عبد الفتاح: السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجًا الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٢٥. جونسون الأديب الانجليزي المشهور نقلاً عن محمّد عبد الغني حسن: التراجم والسير، دار المعارف، ص: ٢٣

أنيس منصور في مسيرة أدب الرحلة (دراسة تحليلية)

عرفانى رحيم

ملخص حياته

أنيس منصور، يبلغ من العمر ٨٧ عاما، نشأ فى قرية مصرية صغيرة قريبة من مدينة المنصورة، حفظ القرآن الكريم فى سن صغير فى كتاب القرية وكان له فى ذلك الكتاب حكايات عديدة حكى بعضها فى كتابه " في صالون العقاد كانت لنا أيام" هو كاتب صحفى وفيلسوف وأديب مصرى (أ. منصور، في صالون العقاد كانت لنا أيام بلا تاريخ)، رئيس تحرير لعدد من الصحف والمجلات، ورئيس مجلس إدارة دار المعارف، وأصدر مجلة الكواكب، وصديقا مقربا لـجمال عبد الناصر، والسادات حيث رافقه فى زيارته للقدس ١٩٧٧م (مورية بلا تاريخ). ألف وترجم العديد من الكتب الفكرية كما كانت له كتابات من وراء الطبيعة ومن أشهر كتبه فى هذا المجال "لعنة الفراعنة"، كانت له العديد من الأعمال الدرامية التى تحولت إلى مسلسلات منها "غاضبون وغاضبات" و "العبقرى" و "حقنة بنج" و "يعود الماضى يعود".

كان له عادات خاصة فى الكتابة فلم يكتب نهارا، وكان حافى القدمين ومرتديا البيجامة وهو يكتب، وكان ينام ساعات قليلة لأنه يعانى من الأرق، ويخشى دائما الإصابة بالبرد.

حصل على العديد من الجوائز منها: جائزة كاتب الأدب العلمى الأول من أكاديمية البحث العلمى، فاز بلقب الشخصية الفكرية العربية الأولى من مؤسسة السوق العربية في لندن، حصل على لقب كاتب المقال اليومى الأول في أربعين عاما ماضية، جائزة الدولة التشجيعية في الآداب من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٦٣، حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٨١، جائزة الإبداع الفكرى لدول العالم الثالث عام ١٩٨١، كما حصل على جائزة مبارك في الآداب من المجلس الأعلى للثقافة، عام ٢٠٠١، وله الآن

تمثال في مدينة المنصورة يعكس مدى فخر بلده بهذا الكاتب والأديب الفذ.

يقول في كتابه اقرأ أي شيء: (رأيي الخاص: أن أي شيء ... أي ورق يقع بين يديك يجب أن تقرأه، المهم أن تكون القراءة عادة وأن تصاحبها لذة المعرفة وتحقق المتعة والبهجة لأنها تجعلك لا تتوقف عن القراءة . (ا. منصور، اقرا أي شئ (مقالات) مايو ٢٠٠٢)

أنيس مع أدب الرحلة

استاثر أدب الرحلات بإهتمام كبير من مثقفي العالم قديما وحديثا وعني به اعلام بارزون عبر أطوار الثقافة علي اختلاف مناهج الراحل من اجناس العالم. وفي قراءة أدب الرحلات متعة وفائدة ومعرفة وإحاطة بالعادات والتقاليد وتعريف باوصاف البلدان الطبيعة ومناخاتها كما أنها مصدر للمؤرخ والجغرافي والإجتماعي وفيها أسوة وقدوة لمن يريد أن يعتبر ويتأمل. فقد فطر الإنسان علي حب استطلاع واكتشاف كل جديد. والرحلات أوسع ابواب المعرفة لكشف المجهول والوصول الي الغاية ومعرفة الحقيقة والاطلاع علي الاثار والاستمتاع بمشاهد التاريخ ومعالم المحاضرات ومظاهر الحياة وما تزخر به عرفاني رحيم الاستاذة المساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها الجامعة الإيلامية للعلوم والتكولوجيا خيال ووهاد وبحار وانهار وإنسان ونبات. لقد بدأت الرحلة ضيقة ثم اتسعت مع مرور الزمن. فالإنسان ولد راحلا وإن اعجزته الرحلة. لقد كانت الرحلات عملا شاقا وأسلوبا مضينا حيث كان الرحالة يتعرضون لحالات كثيرة كتقلب المناخ وتبدل الاحوال إلي حانب ما يصادفونه من الخوف والضياع وطوال الطريق ومصارعة الأمواج ويروي عن أحد الحكماء: "المسافر يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شيء، وأن تكون له أذنا حمار ليسمع كل شيء، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أي شيء، وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أي شيء، وأن تكون له ساقا معزة لا تتعبان من المشي. وأن يكون له - وهذا هو الأهم - حقيبتان: إحداهما امتلأت بالمال والثانية امتلأت بالصبر" بينما ادب الرحلات من أخطر ما حفلت به الاداب الأجنبية كما انه كان وسيلة هامة من وسائل نشر المعلومات الجغرافية والادبية والإجتماعية عند

العرب القدامي من خلال ما شاهدوا ورأوا ومن خلال ما ادهشهم في رحلاتهم من عادات و تقاليد و قيم عند الشعوب.

هذه الرحلات التي قام بها الجغرافييون العرب القدامي ظلت تتناقلها الاجيال امثال ما عبر عنه ابن جبير الاندلسي والمسعودي وعبد اللطيف البغدادي وابن بطوطة وغيرهم ما سجلوه في طول البلاد التي زاروها وما عرضوا من آثار ايضا شاهدة علي حضارة الاقوام ومعتقداتهم. بل لم يكتفوا بذلك وراينا بعضهم يسجل ما سمعه من حكايات و روايات و اساطير ايضا.

فأدب الرحلة ادب حيوي وقوي وهام وشائق لما يبعثه من متعة وما يبثه من اشواق وما يتخلله من معلومات ولكنه مع ذلك هو ليس سهل التناول.

ان انيس منصور يشجع الناس علي الهجرة والتنقل والسفر. ففي كتابه "الذين هاجروا" يقول لنا بان السفر له فوائد عظيمة "ليس نبيلا من لا يغضب وليس انسانا من لا يحرك عقله إلي ابعد من قدميه. ولا يتخيل ابعد من عقله".

و العرب قديما قالوا:

هاجر تجد عوضا عمن تفارقه".

فأنيس منصور نله ايضا عين عصفور فهو راي كل شئ من أعلي. ركب البغال في اعالي الهملايا وركب النفاثة من هوليود إلي واشنطون وركب الأفيال وركب الزوارق في وسط مياه مليئة بالافاعي والتماسيح في اقصي جنوب الهند. وأكل الموز بالشكة في سنغافور وشرب الشاي بالملح في اندونيشيا. وقد انتقل من معبد الي حانة ومن حانة الي غابة والي قمة الجبل. إلي طائرة فوق محيط أثناء عاصفة و الناس نيام. له ظهر جمل تحمل به كل شئ وساقا معزة لم تتعب أبدا من المشي. ولم ينس ان يحمل علي كتفيه حقيبتين: إحداهما بها أوراقه وأقلامه والثانية مملوءة بالصبر ورهافة الفطنة وسرعة الإلتقاط والنظرة العميقة التي تجلو حقيقة الاشياء وعاد إلينا بعد رحلاته وفي يديه مفتاح جديد. كان أنيس منصور من هولاء القلائل الذين عبروا في عمق وروعة عما راوا وسهولة وقدرة وإبداع عما شاهدوا فهو رائد له مدرسة متميزة في ادب الرحلات. واهم مولفاته في أدب الرحلات هي:

حول العالم في مائتي يوم
اطيب تحياتي من موسكو
بلاد الله .. خلق الله
أليمن ذلك المجهول
ايام الجزائر البيضاء
أنت في اليابان و بلاد أخري

حول العالم في ٢٠٠ يوم

هو اول باكورة انتاجه في ادب الرحلات.عرض في هذا الكتاب معلومات عن الدول المختلفة وخصوصاً دول جنوب شرق آسيا مثل الهند وسيلان وسنغافورة وأستراليا واليابان والفلبين وهونج كونج، ثم زار أيضا الولايات المتحدة الأمريكية وجزيرة هاواي. وتحدث أيضا خلال رحلته إلى اليابان عن اللؤلؤ المستزرع الذي أكتشفه ميكوموتو الذي قام بأول عملية استزراع للؤلؤ. وكتب عما أعجبه في هذه البلاد من تقاليد وعادات مختلفة، وتشابهها مع عادات الدول الأخرى. وتحدث في الكتاب عن اعتزازه بكونه أول صحفي في العالم كله أجري مقابلة حصرية مع الدالاي لاما رئيس دولة التبت (الحائز علي جائزة نوبل في السلام)، وقد أجرى معه مقابلة حصرية، وتم أخذ صورة لأنيس منصور مع الدالاي لاما، وكانت هذه أول صورة يراها العالم للدالاي لاما وقد تم نشرها بدار اخبار اليوم بمصر. وفيه سافر إلى جزيرة سيلان التي نفى فيها الإنجليز زعماء الثورة العرابية. وكان منصور أول من لفت الأنظار إلى حياة عرابي هناك، ودعى إلى الاهتمام بتاريخه وحياته وأثره في تلك البلاد. وكشف مخطوطات نادرة عن عرابي باشا، حياته، وزوجاته.

يعتبر هذا الكتاب من أفضل الكتب في أدب الرحلات وعلي الرغم من ان الكتاب من ستينات القرن العشرين الا انه مازال رائجا حتى اليوم بالرغم من التقدم التكنولوجى من انترنت واقمار صناعية وتواصل بلا حدود، وايضا رغم تغير تلك البلاد التى زارها انيس منصور وتقدمها مع مرور الزمن .. الا ان للكتاب مذاق خاص فهو لم يعد مجرد رحلة حول العالم فقط، بل اصبح ايضا رحلة مع الزمن للوراء مما اكسبه معنا جديدا. بدأ أنيس منصور رحلته حول العالم في ذلك الكتاب من الهند وانتهت في الولايات المتحدة الامريكية مرورا

بسيلان وسنغافورة واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان وجزر هاواي.

ويتضح من خلال صفحات الكتاب أسلوب انيس منصور الرائع في وصف الاحداث والاماكن .. وحتى السخرية مما حوله. كان دائم التنقل من بلد الي بلد مستقلا الطائرات النفاثة او الطائرات ذات المحركات يقول:

"جاءت صفحات هذا الكتاب صورة لافكارى ومتاعبى ومشاكلى .. فقد كتبتها جالسا مقرفصا فى سريرى هربا من البعوض واحيانا خوفا من الافاعى والعقارب وكتبتها تحت اشجار الموز وكتبتها في ظلال جوز الهند وعلى منضدة استأجرتها من حديقة الدومين فى مدينة سيدنى وكتبتها على مصابيح الجيشا فى كيوتو وسجلتها وانا مريض وسجلتها وانا خائف من الطريق الطويل الذى لم يمش فيه احد قبلى".

من منا لم يحلم بالسفر حول العالم ورؤيته تلك البلاد التى سمع عنها وحتى التى لم يسمع عنها يوما:

"انها المتعة .. والثقافة .. وذكريات السفر الجميلة التى لا توصف".

فالكتاب هو ليس مجرد وصف لتلك البلاد التي زارها انيس منصور فقط بل وصف البشر، وسلوكهم، وافكارهم، وتاريخهم ومعتقداتهم ووصف اللحظات التي عاشها انيس منصور فى تلك البلاد. أبدع فى وصف الناس والعادات والتصرفات .. أبدع فى وصف الشوارع والأماكن .. أبدع فى وصف الأزياء وابدع في وصف الرقصات. طبعا بالإضافة إلى الفنادق والمقاهي والسينيمات.

اقتباسات من الكتاب

الذين يفقدون الأمل هم الذين يتحدثون عنه، والذين يفقدون الحب هم اكثر الناس تغنيا به. (أ. منصور، حول العالم في مائتي يوم بلا تاريخ) ".

إن الشمس التي هي مصدر الحياة للدنيا كلها، ليس فيها حياة".

"فليس أروع ولا أمتع من رؤية بلد جديد.. من معرفة شئ جديد.. من الخوف من جديد.. والقلق من جديد.. والاطمئنان من

جديد".

"وهنا في اليابان لايرون من الضروري أن يعمل الطبيب طبيباً ولا خريج كلية الحقوق محامياً ، ولا المهندس مهندسا وإنما هو يدرس ما يعجبه أو ما يستريح له ثم بعد ذلك يبحث عن أي عمل ."

"في الهند تعلمت أن الدنيا من الممكن أن تعيش من غيري. وان الناس يعيشون حياتهم ويمشون على نظام خاص وأن هذا النظام سواء اعجبني او لم يعجبني فلن يغير هذا شيئا، فإما أن اسكت او اخرج من البلاد. وفي اندونسيا يضحك الناس دائما ولايعملون إلا القليل. وفي الصين يضحك الناس كثيرا ويعملون كثيرا. وفي اليابان مؤدبون ضاحكون وقدرتهم على العمل خارقه يعني من الممكن أن يكون الإنسان مؤدبا وباسما وناجحا في عمله."

"إنني لم أعرف الكثير جداً من هذه الدنيا، ولم أعرف إلا القليل جداً من نفسي .. فعيناي مفتوحتان على الدنيا، ولكنني بلا عينين عندما أنظر إلى داخلي .. إلى الزحام داخلي .. إلى الوحشة المظلمة في أعماقي .. إلى الإنسان الذي نسيته يصرخ ولا أسمعه ولا أتبينه .. ولا أعتقد أنني سأستطيع يوماً ما .. فقد اتسعت المسافة بيني وبينه .. أو .. بيني وبيني .. وإنني في حاجة إلى ترجمان. ترجمان صديق.. يخبرني ماذا أريد أن أقول لنفسي .. ماذا أريد من نفسي، ماذا أستطيع .. ما الذي أقدر عليه".

سجل فيه أنيس منصور خواطره ومشاهداته وتاملاته وانفعالاته الذهنية والعاطفية في رحلته من القاهرة الي الهند وسيلان واندونيشيا كما ذكرت آنفا. بعد أن صدرت الطبعة الاولي من كتاب "حول العالم في مائتي يوم جلس يقلب في الكتاب وفي صفحاته فأحس انه غير مترابط في أجزائه فجلس يكتب هذا الكتاب من جديد في جلسة واحدة واستغرق ١٤ يوما لتصدر الطبعة الثانية قدم لها عميد الأدب العربي د. طه حسين بقوله: "هذا كتاب ممتع حقا فلا تنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت في قراءته ومع انه من الكتب الطوال جدا فميزته الكبري هي انك تقروءه لا تحتاج الي راحة. انت تود لو تستطيع ان تمضي فيه حتي تبلغ اخره في مجلس واحد. لانك تجد فيه المتعة والراحة والسلو وإرضاء حاجتك الي الاستطلاع".

ثم يؤكد لنا الاديب الكبير محمدو تيمور في الطبعة السادسة

بانه لم يجد نظيرا لبراعة أنيس منصور من الكتاب والأدباء حتي تمكن ان يعقد بينهما مقارنة ..

ولم يشا أنيس منصور أن يغير كلمة واحدة في العشرين طبعة التي ظهرت حتي الان إيمانه منه بأن هذا الكتاب هو تجربة إنسانية في المقام الاول ويجب أن يسجلها كما هي دون إضافة او حذف حرف واحد. وفي عام ١٩٦٣ حصل أنيس منصور علي جائزة الدولة التشجيعية وهي أول جائزة في أدب الرحلات عن هذا الكتاب باعتباره اول صحفي عربي سافر إلي القارات الخمس. وقد جاء في قرار المجلس الأعلي لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بفوز الكتاب بالجائزة .

"إن طول الرحلة وتعدد الاقطار التي زارها الاديب الصحفي أنيس منصور وتدوين خواطره أثناء السفر خلع علي الكتاب طابعته الخاص من ناحية الموضوعات وأسلوبه الخاص من ناحية التعبير. وكان تصور الكاتب لجمهوره الكبير من قراء الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية المصورة ذا أثر كبير في تخير المشاهد والتقاط المناظر وأنتقاء الأحداث وصياغة الأوصاف وذات الالوان الزاهية ليظل قادرا علي تشويق القراء وإغرائهم بمتابعة الرحلة و تجديد نشاطهم ".

وكان اكثر الكتب توزيعا بشهادة منظمة اليونسكو بالأمم المتحدة ولا يزال اكثر الكتب توزيعا حتي الان بعد مرور عشرين سنة علي صدوره الاول وسافر انيس منصور بعد هذه الرحلة سبعين مرة الي اكثر إلي اكثر دول العالم ويشعر دائما أن حبه للرحلات ليس مغامرة و لكنه حب للمعرفة.

أنيس منصور ينطلق بقلمه الخاطف علي الورق ويصف ما يري. يصف البشر والحيوان واللؤلؤ علي الموائد الفاخرة وبين الادغال المخيفة وتحت الامواج الهادرة. قام باسلوب الصحافة التلغرافي فجاء لونا جديدا شائقا من أدب الرحلات. وهو لا شك إضافة جديدة في هذا المجال.

أعجب الرحلات في التاريخ

خليط من الحكمة والبؤس وقصص الفشل والنجاح وقصص الأولين والآخرين. جرعة مركزة من تاريخ الرحلات .. عوالم

وأماكن واسماء. كتاب رائع يسافر بالقارئ بأماكن لم يزرها من قبل ويقابل أناس لم يكن ليعرفهم إلا من خلاله. كتب أنيس منصور في أدب الرحلات تعتبر تجارب مميزة جداً تأخذك بعيداً إلي ما تتمني. أنت تراه وانت لم تغادر مكانك. أكثر من ٥٠ رحلة تاريخية من مختلف بلدان العالم ، بعضها ممتع وبعضها ممل نوعا ما، وفيه جزء فى الأخر عن تجربة أنيس منصور فى دولة ايران لحضور مهرجان ذكرى "كورش" مؤسس الدولة الفارسية.

أما كتابه غريب في بلاد غربية فهو يحوي أربعة كتب في مجلد واحد: بلاد الله .... خلق الله .... أطيب تحياتي من موسكو ... اليمن ذلك المجهول .... أيام في الجزائر البيضاء.

ففي بلاد الله ... خلق الله ... يصبح أنيس منصور حكمدار أو كلمة الحكمدار عند العسكريين معناها: الشخص الذي يتلقي الاوامر ويبلغها إلي زملائه ويتولي تنفيذها. والاوامر هي ان احدا ليس مسؤلا عن سفرهم الي الكونغو .. وانه مهما حدث لهم فهم وحدهم المسؤلون.

يخبرنا الأديب أنيس منصور فى كتابه (غريب فى بلاد غريبة) عن الأشياء التى رأها فى رحلاته الكثيرة وعن المواقف التى حدثت معه فى تلك البلاد، فى ألمانيا وإيطاليا والجزائر وموسكو واليمن وبلاد أخرى زارها وحدثت معه أشياء بعضها يدعو إلى الضحك والسخرية وبعضها يدعو إلى التأمل وبعضها يجعلك تتساءل لماذا يفعل الناس هذه الأفعال؟

يأخذك فى ادق تفاصيل المكان والزمان يشعرك وكانك معه فى الرحلة تستطيع أن تدور حول العالم وتتعرف على أناس وثقافات مختلفة بمجرد فتحك لهذا الكتاب فمن الكونغو ومتاهات أفريقيا وطبيعتها الى حيث تجد نفسك محوطا بالطبيعة الألمانية الصناعية والعملية وفجأة تجد نفسك فى جنوب ايطاليا حيث نابولى وشعرائها وتنتقل على انغام الموسيقى الى صقلية حيث رواد الفلكلور وتستمر الى أن تذهب الى النمسا حيث الموسيقى ناعمة والناس أيضا كما قال الكاتب وتطير الى أمريكا الجنوبية وبالتحديد كوبا حيث البن والرقص والثورة ورموزها ثم عودة اوروبا وبالتحديد الى سويسرا وتستمتع بوصف الكاتب لسويسرا فهى بلد محايدة كذلك اهلها يمتازون بالدقة

وحب العمل ثم فجأة تجد البرد يحيط بك من كل جانب فانت فى موسكو و ينصحك بأن تصطحب معك الكثير من الملابس حتى لا تقع فى غلطة الكاتب ثم يصطحبنا الكاتب الى اليمن... ذلك المجهول حيث تجد نفسك وسط الجنود المصريين ومصاعب الحياة هناك وعادات اهل اليمن وتختم رحلتك فى الجزائر حيث تشعر هناك بروح الأخوة التى تسود بين "الأشقاء" و "أنت شخص مرغوب فيك جدا" لأنك مصرى وتتعرف على مدينة بنى يزجن وفى ٣٢٩ صفحة تفتح عالما جميلا تحزن عندما تغادره وتغلق هذا العالم حيث يفتح لك شهيتك الى ادب الرحلات.

كما يطوف أنيس منصور في كتابه بعديد من الأماكن يتعرض لعديد من القضايا في الفن والأدب والسياسة.

اما أطيب تحياتي من موسكو

يتحدث الكاتب من رحلته إلي روسيا حيث كان أرضها من قبل خرابا .احرقها و هدمها فوق رؤوسهم و أولادهم ونسائهم وامالهم الألمان ومثل الالمان جيوش الحرب العالمية الأولي. وقبلها نابيليون. واثناء ذلك كل الحروب الأهلية وحركات الاستقلال. ووقف طويلا عند اشياء غريبة توجد في هذه البلاد. حاول ان يدور حولها و و يهزها لعله يتحرك.

واليمن ذلك المجهول

فهي رحلة اليمن. كتاب رائع يحاكي الواقع اليمني قبل ثورة ٢٦ سبتمبر - الجهل - الفقر - المرض - الاستبداد - الظلم لعل هذه الكلمات هي الوحيدة للتعبير عن اليمن قبل الثورة. كانت اليمن قد عرفت حكم المللكات وربما كانت اليمن من اول البلاد التي حكمتها النساء وإن "بلقييس كانت سيدة جميلة ذكية. وعرفت اليمن ملكة اخري بعد الإسلام وكانت في غاية الحكمة وهي السيدة أروي بنت أحمد . (فوزي بلا تاريخ)

ولقد استطاع انيس منصور من خلال كتابه هذا ان يميط اللثام وان يكشف ويكشف النقاب عن لغز هذه البلاد ويفتح حدودها للقاري.

وأما الكتاب **"ايام الجزائر البيضاء"** وتقضي معه اياما من خلال رؤيا السفر والترحال والاشياء الطبيعية ومن خلال البحث

المشفوع بالرغبة في الخلق والإبداع يعطي العالم الجديد للكاتب مجبولا بالدهشة والحب والاستغراق في محاولة منه للتوحد بالشمس والرمل والبحر ووجود البشر وانحدارات الأزفة والشوارع. وفي اللوحات التي رسمها الفنان أنيس منصور تكتشف وجوها اخري للجزائر.

والواقع أنه من الممكن ان نقول إجمالا أن كل أعمال أنيس منصور يمكن ان نجعلها تحت عنوان السياحة. فهو إما ياخذك إلي بلاد العالم وما فيها من طرائف وإما ياخذك إلي رحلة فكرية متحدة مع الأفكار الجيدة والاراء الجليدة. حتي عند ما يكتب في النقد فقد قام بنوع اخر من السياحة داخل النفس البشرية عندما تنطلق معبرة عما يجيش فيها من افكار ومعان.

وليس هناك ما هو أمتع من السياحة الفكرية وخاصة عندما تصاغ في قالب سهل ممتع. وليس فيها صناعة ولا تكلف. إنما يتحدث إليك ببساطة ويمتعك فنيا ببساطة أيضا. بدت في كتاباته إنطباعاته الشخصية من نواحي المعرفة العامة والفن الشخصي. وابسط كما يقال عن رحلات أنيس منصور أنه ياخذك في عربة صغيرة ويعرض امامك فيلم كاتب وريشة فنان وينقلك في لحظة بين روائع الادب وخداع السياسة بين الاسطورة والحقيقة. كل ذلك في فني عجيب.

وحتي كتبه التي يحاول فيها ان يطوف بذهنه العوالم المحيطة بنا ويحاول ان ينطق هذه العوالم ويخرج منها بنتائج منطقية. وهذه الرحلات الفكرية يمكن اعتبارها من أدب الرحلات. ففي كتاب "الذين هبطوا من السماء" محاولة لفهم الكون المحيط بنا. العوالم الضخمة التي نعتبر نحن فيها ذرة صغيرة وسط محيط ضخم لا يبلغ الإدراك له مدي .. وفما تكاد تمضي في هذه الرحلة الممتعة عبر الكواكب والنجوم حتي وانت تحس يستدرجك معه دون ان يرهق ذهنك وعقلك.

المراجع و المصادر

أ.د شموئيل مورية. "أنيس منصور رائد الربيع العربي."

انيس منصور . حول العالم في ٢٠٠ يوم . القاهرة . دار الشروق .١٩٦٢

أنيس منصور. *اتمني لك (مقالات)*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٢.

ـــ. *إثنين .. إثنين*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧.

انيس منصور. *أحب و أكره (مقالات)*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠.
ـــ. *أرواح و اشباح*. مدينة نصر. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧.
ـــ. *اقرا أي شئ (مقالات)*. الفجالة . القاهرة: دار نهضة للطباعة و النشر و التوزيع، مايو ٢٠٠٢.
أنيس منصور. *الحيوانات ألطف كثيرا*. الفجالة . القاهرة: دار نهضة، ٢٠٠٠.
ـــ. *الدين و الدنيا ميت*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٨.
انيس منصور. *الذين هاجروا*. الفجالة القاهرة: نهضة مصر للطباعة و التوزيع و النشر، يوليو ٢٠٠٥.
ـــ. *الذين هبطوا من السماء*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧.
أنيس منصور. *الرصاص لا يقتل العصافير*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٦.
انيس منصور. *الرئيس قال لي و قلت ايضا !* القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٨.
ـــ. *القلب ابدا يدق*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦.
أنيس منصور. *الكبار يضجكون أيضا*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، مدينة نصر . القاهرة.
انيس منصور. *الوجودية* . القاهرة: دار نهضة مصر، ابريل ٢٠٠٧.
ـــ. *أنتم الناس ايها الشعراء*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، فبراير ٢٠٠٢.
أنيس منصور. *أوراق علي شجر*. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣.
انيس منصور. *تعال نفكر معا*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، مايو ٢٠٠٢.
انيس منصور. "تعلمت من الرحالة إبن جبير." *الشرق الأوسط*، ٢٠١١.
ـــ. *تولد النجوم و تموت (مقالات)*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٣.
أنيس منصور. *جسمك لا يكذب!* مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦.
انيس منصور. *حلمنا الجميل* . الفجالة . القاهرة: نهضة مصر، إبريل ٢٠٠٦.
أنيس منصور. *حلمنا الجميل*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٦.

انيس منصور. *ساعات بلا عقارب*. الفجالة القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، يناير ٢٠٠٢.
ـــ. *في السياسة (مقالات)*. بيروت . لبنان: دار المعارف . لبنان، ١٩٨٠.
أنيس منصور. *في صالون العقاد كانت لنا أيام*.
ـــ. *قل لي يا أستاذ*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦.
ـــ. *كيف لا أبكي !* الفجالة . القاهرة: نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠١.
انيس منصور. *لاول مرة*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢.
أنيس منصور. *لحظات مسروقة*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥.
ـــ. *لعل الموت ينسانا (مقالات)*. الفجالة . القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٧.
انيس منصور. *لو جاء نوح*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.
انيس منصور. *مدرسة الحب* . مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦.
انيس منصور. *من نفسي*. مدينة نصر . القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦.
باهر التهامي. "انيس منصور ..... نمط إنساني نادر الوجود." *masras.com*. ٣٠ اكتوبر, ٢٠١١. www.masras.com (تاريخ الوصول الثلاثاء يوليو, ٢٠١٤).
محمود فوزي. *أنيس منصور ذلك المجهول*. القاهرة: مؤسسة دار التعاون للطبع و النشر، بلا تاريخ.

مساهمة محمد إدريس الكاندهلوي في المديح النبوي (١٩٠٠-١٩٧٢م)

الدكتور بلال أحمد زرغر الندوي•

الملخص:

المديح النبوي هو لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنه لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، و ظهر المديح النبوي فى شبه القارة الهندية مع دخول الإسلام و ساهم فيه علماء الهند وشعراءها فى كل حقبة من تاريخهم، غير أن الهند ساهمت فى هذا المجال باللغة الأوردية و الفارسية أكثر من العربية. و لم يكن أحد بالهند من قرض الشعر باللغة العربية الا و له آثار فى المديح النبوى، أما هذه المقالة فإنها تتناول مساهمة محمد إدريس الكاندهلوي فى المديح النبوي مع معالجة بعض آثاره القيمة فى هذا المجال و يبدو من مدائحه أن فكرته تنطلق من رؤية إسلامية سالمة تطبها الروحانية ويتميز كلامه بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان و حب النبي صلى الله عليه وسلم طاعة و شفاعة و وساطة.

المديح النبوي و محمد إدريس الكاندهلوي:

ولد الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي فى بلدة كاندهلة بمديرية "مظفرنغر" سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز من عمره عشر سنوات، وحصل على الدراسة الابتدائية في الزاوية الأشرفية للشيخ أشرف علي التهانوي، ثم التحق بمظاهر العلوم في سهارنفور، وتخرج فيها مع التخصص في علم الحديث في ١٩١٧م، ثم جاء به تلهفه الشديد للعلم إلى دارالعلوم بديوبند حيث تخصص في علم الحديث للمرة الثانية في ١٩١٨م، وبعد الحصول على التعليم تولى وظيفة التدريس في المدرسة الأمينية الإسلامية بدلهي، ولم يمكث فيها إلا لبضعة أشهر فجاء إلى ديوبند وعين في دارالعلوم مدرسا من ١٩١٩م إلى ١٩٢٧م، ثم ذهب إلى حيدر آباد حيث أقام فيها لمدة اثنتي عشرة سنة، ثم جاء إلى دارالعلوم مرة أخرى وقام بتدرس كتب التفسير والحديث لمدة طويلة حتى هاجر إلى باكستان حيث عين شيخ الجامعة في الجامعة العباسية بمدينة بهاولفور،

• المحاضر المتعاقد بقسم اللغة العربية بكلية كفواره الحكومية.

وبعد سنتين عين شيخ الحديث في الجامعة الأشرفية في لاهور حيث اشتغل لمدة ٢٢ سنة، وتوفي في لاهور سنة١٣٩٤هـ/١٩٧٤م [١]

كان الشيخ محمد إدريس عالما كبيرا وله مصنفات كثيرة في علم الحديث والعقائد، وكان العلامة السيد سليمان الندوي يعترف بمكانته العلمية العالية بقوله: "أود أن أسرق علم الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي"[٢] وكما يعترف بها العالم الشهير المفتي محمد شفيع قائلا: "وكان للشيخ الكاندهلوي مكانة مرموقة بين العلماء والأولياء والأتقياء، وقد تكرم الله عليه بالمحاسن الظاهرية والباطنية، وكان فقيد المثال في الكمالات العلمية والعملية"[٣].

كان الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي شاعرا مجيدا وكانت له قدرة ملحوظة على نظم الشعر بأسلوب سلس يخلو من الكلمات الغريبة والتراكيب الركيكة المعقدة، وقد نظم في موضوعات مختلفة وفي مناسبات متنوعة، وله قصيدة في الحمد والمناجاة بعنوان "رائية الحمد والثناء والمناجاة والدعاء" ومنها يقول[٤]:

لك الحمد والتقديس والمجد كله ... تباركت يا رب السموات والثرى
لك الكبرياء والخلق والأمر كله ... تعاليت ما أولاك بالحمد اجدرا
كل الفضل والنعماء والشكر كله ... فنعماك جلت أن تعد وتحصرا
تعاليت عن أوهامنا وعقولنا ... فسبحانك أللهم أكبرا أكبرا
ومن ذ الذى يحصى ثناء ومدحة ... وإن بالغ المثني وأكثرا وأكثرا
ولو أن ما في الكون من كل كائن ... لسان يديم الحمد كان مقصرا
رضيت بك الإله ربا ومالكا ... وبالمصطفى الهادي رسولا مبشرا
وأسألك أللهم تعجيل رحمة ... فمن جوهر التعجيل عبدك خمرا

وفي نهاية القصيدة يصلي ويسلم على سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين قائلا:

وصل على خير البرايا شفيعا ... صلاة تسامي أطيب المسك أذفرا
وسلم وبارك دائما ومسلسلا ... مدى الدهر ما لبى ملب وكبرا
وأزواجه والآل أهل طهارة ... وأصحابه الغر الأطائب عنصرا

إن الأبيات المذكورة أعلاها تدل على قدرة الشاعر الفائقة في نظم الشعر حسب الموضوع والمضمون بفصاحة البيان وطلاقة اللسان.

---

١. راجع: تذكره مولانا محمد إدريس كاندهلوي: لمحمد ميان صديقي، واكابر علماء ديوبند: ص/ ٢١٥– ٢٢٠.
٢. أكابر علماء ديوبند: ص/ ٢١٩.
٣. المرجع السابق: ص/ ٢١٩.
٤. سالنامة دارالعلوم، ص/ ٣٨ ، محرم و صفر / ١٣٦١هـ

وأما ما يتعلق بالمديح النبوي الخالص فله فيه عدة قصائد وأطولها "ميمية المديح" و"لامية المعراج"، وكان الشيخ الكاندهلوي يحب قصيدته الأولى "ميمية المديح والثناء" للغاية، فكان يقرأ أبياته حينا بعد أخرى، ومن أبيات هذه القصيدة[1]:

إذا كان مدح أو ثناء منمنم ... فأكرم خلق الله أولى وأقدم
ولا بد من بحر طويل لمدحه ... لما أنه بحر المكارم قلزم
لكل امرئ في الحب دين ومذهب ... يدين بما يهوى وما هو يزعم
وديني حب المصطفيى منبع الهوى ... أجل الورى من في الجمال مسلم

وقصيدته التي سماها بـ"لامية المعراج" تحتوي على واقعة الإسراء والمعراج، وذكر الشاعر فيها الفضل الذي أنعمه الله تعالى على نبيه أثناء المعراج بالتفصيل، والقصيدة تشتمل على مائة وستة وعشرين بيتا، يقول فيها[2]:

ألا ليت شعري هل يقولن مقولي ... قصيدا بإسراء النبي المبجل
فسبحان من أسرى بليل بعبده ... إلى المسجد الأقصى إلى عرشه العلـ
تمطى براقا خطوه مد طرفه ... كبرقٍ وليس البرق منه بأعجل
فلاح كبدر في الكواكب كامل ... فيا لاحتفال الكواكب مخجل
وقال له الروح الأمين تقدمن ... وأمم جميع الرسل خير مرسل
دنا فتدلى قاب قوسين وأدنى ... وأكرم بإيحاء سبحان مفضل
رآه رآه دون شك وريبة ... وما زاغت العينان عن نوره
رآه بعينى رأسه وفؤاده ... رواه الحلـ ابن عباس صحيح مسلسل
وليس محالا أن يرى العبد ربه ... بغير محاذاة وابن وهيكل
ومعراجه كان بالجسم يقظة ... كما هو منطوق بالكتاب المفضل
رأى الآية الكبرى وما شاء ربه ... رأى جنة المأوى ومالم يخيل

---

[1]. مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي: ص/ ١٠٧– ١٠٨.
[2]. المدائح النبوية في الهند: ص/ ٤١٨– ٤١٩.

وفارقه روح الأمين بسدرة وقال له هذا نهاية منزلي

وودعه جبريل إذ جاء رفرف تدلى له مثل المنصة من عل

وللشيخ محمد إدريس قصيدة أخرى نظم فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، والقصيدة تحتوي على أربعين بيتا، نقدم بعض الأبيات من هذه القصيدة، يقول فيها[1]:

هـــو الصـــالح الصـــادق المـــؤتمن رواء الغليل شفاء السقيم

هو الأعلم الأكرم المرتجى سفوح نصوح عفو كريم

هو العاقب الحاشر المستغاث مجير الورى من عذاب الجحيم

هو الأحسن الأجود الأشجع أغر الجبين جميل وسيم

ختام النبيين والمرسلين مقف وماح قئوم مقيم

ختام السلام كمسك الختام لختم الكرام نبي فخيم

وأصحابه الأصفياء الكرام مدى الدهر ما دام يجري النسيم

هذه الأبيات المختارة من قصائد الشيخ الكاندهلوي في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم تعبر عن مشاعره الكامنة وأحاسيسه الصادقة الغريقة في حب سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، كما تدل على تضلع الشاعر وتمكنه من اللغة العربية وقدرته الملحوظة على قرض الشعر ونظم القصائد بأسلوب عذب سلس وكلمات رائعة جذابة.

خاتمة

و ختاما نقول إن مدائح الشيخ الكاندهلوي النبوية تحتل مكانة مرموقة بين القصائد العربية التي قيلت في شبه القارة الهندية بل هذه القصائد الغراء جديرة بأن تعد من أروع القصائد وأبدعها في حسن السبك وجودة الألفاظ ونظم الكلمات وروعة البيان وسمو الفكرة وصفاء الخيال وصدق اللهجة وندرة التشبيب وجمال القريحة والعذوبة والسلاسة. كذلك لا يوجد في كلامه شيئ يخل بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، ومديحه النبوي بعقيدة عن الإطراء والمغالاة اللذين ليس لهما أي أساس في الشريعة، وهذا التوفيق

[1]. مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي: ص/ ١٠٨– ١٠٩.

من منة الله وكرمه عليه، وإلا: فلناس فيما يعشقون مذاهب.

المراجع والمصادر

١. سيد محمد ميان ديوبندى: علمائے هند كا شاندار ماضى، جمعيه پريس، دهلي، طبع ثالث ١٩٦٣م.
٢. محمد ميان صديقى: تذكره مولانا محمد ادريس كاندهلوي، طبع فى لاهور ١٣٩٦ هـ
٣. "القاسم" دارالعلوم ديوبند، يو پى، الهند، ربيع الأول ١٣٢٩ هـ ورجب ١٣٢٩ هـ.
٤. سالنامه "دارالعلوم" دارالعلوم ديوبند، محرم وصفر ١٣٦١ هـ.
٥. صدر الحسن الندوي، الدكتور: المدائح النبوية في الهند، معهد الدراسات الإسلامية، أورنغ آباد، مهاراشترا، الهند، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م.
٦. زبير أحمد الفاروقي، الدكتور: مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي حتى نهاية ١٩٨٠م، دار الفاروقي للطباعة والنشر، ذاكر باغ، نيو دلهي، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.